

الخلاصة في دروس العقيدة الطحاوية

الدرس الأول

➤ فضل طلب العلم.

- ❖ مِنْ أَجْلِ الطاعات، وأعظم القربات التي يتقرب بها المسلم إلى ربه عز وجل: طلب العلم،
- ❖ ولا شك أنَّ العلم المتعلق بالعقيدة هو أَجَل هذه العلوم وأشرفها؛
- ❖ فموضوعات علم العقيدة تتعلق بالتوحيد والإيمان، وحقوق الخالق -عز وجل- على عباده، فهو أَجَل وأشرف العلوم الإسلامية،

➤ أنواع المصنفات العقدية في هذا العلم.

- ❖ ولذا عُني العلماء بهذا العلم، تأصيله وتصحيحه وبالدفاء عنه، ألفوا المؤلفات الكثيرة والمتنوعة، فكان هذا العلم أولاً من جهة التصنيف والتدوين ضمن المصنفات الحديثية.
- ❖ ثُمَّ استقلَّ هذا العلم بعد ذلك في مصنفات خاصة، منها ما يُسمى بكتب العقائد المسندة التي تقرر فيها العقيدة بالأسانيد، مثل: كتاب الإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام، ونحوها من الكتب.

➤ كتب العقائد المسندة

- ❑ منها الكتب الشاملة لكل أبواب ومسائل الاعتقاد،
- ❑ ومنها كتب متخصصة في باب من أبواب العقيدة، مثل:
- ✓ كتب التوحيد، فهي تُعنى بتقرير التوحيد، وأنواع التوحيد والمسائل المتعلقة بالتوحيد فقط.
- ✓ وكتب الإيمان تُعنى بباب الإيمان فقط، شُعب الإيمان، وأركان الإيمان، ودخول الأعمال في معنى الإيمان.

- ✓ وهناك كتب تكون في باب من أبواب العقيدة مثل: كتب القدر، وهي خاصة بأبواب القدر، وهناك كتب تكون في مسألة واحدة مثل كتب العلو، وكتب صفة الكلام، وكتب الاستواء، وكتب الرؤية، فتعنى بهذه المسألة العقدية في باب من أبواب العقيدة.

- كتب العقائد تمتاز بالشمول، أما كتب التوحيد وكتب الإيمان فهي متخصصة في باب من أبواب العقيدة، مثلها كتب السنة، وكانت في القرون الأولى تسمى كتب العقائد بكتب السنة، مثل أصول السنة للإمام أحمد، شرح السنة للإمام المزني، فهي مثل كتب العقائد تمتاز بالشمول.

- بعد كتب العقائد المسندة، جاءت كتب العقائد المختصرة، التي هي تقريب لمسائل العقيدة لطلاب العلم لكي تحفظ هذه المتون، تحذف الأسانيد وتقرر المسائل الاعتقادية، إما بالدليل وإما مجردة عن الدليل مثل المتون الفقهية المختصرة.

- كتب العقائد المختصرة أيضًا كثيرة ومنها هذا الكتاب المقرر تدريسه في هذا البرنامج العقيدة الطحاوية، فتعتبر من كتب العقائد المختصرة على طريقة أهل السنة والجماعة.
- كتب العقائد المختصرة عند أهل السنة والجماعة تمتاز بأنها تقرر مسائل الاعتقاد التي تميز بها أهل السنة والجماعة عن غيرهم، فيذكرون في كتب العقائد المختصرة ما يميز أهل السنة عن غيرهم، سواء في الصفات العلمية أو الصفات العملية أو الصفات الأخلاقية.
- من الكتب المختصرة ما يسمى بالمنظومات العقدية، لأجل تقريب المسائل لطلاب العلم.
- مؤلف هذا الكتاب، وهو الإمام أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الحجري الطحاوي، المولود سنة تسع وثلاثين بعد المائة الثانية، والمتوفى سنة إحدى وعشرين بعد المائة الثالثة من الهجرة.
- ❖ هذا الإمام عاصر الحفاظ من أصحاب الكتب الستة، عاصر بالتدوين المصنفات الحديثية، وما تتضمنه من الكتب والأبواب العقدية، بل هو من طبقة الحفاظ أصحاب الكتب الستة، وشاركهم في بعض المرويات.
- ❖ من أشهر شيوخه الإمام المزني -الإمام المشهور- بل هو خاله، كان يتلقى العلم في مسجد عمرو بن العاص، وتفقه في أول حياته على المذهب الشافعي، ثم لما بلغ العشرين من عمره تحول إلى المذهب الحنفي.
- ❖ له من المؤلفات شرح معاني الآثار، وهو من أول مؤلفاته، وله كذلك شرح مشكل الآثار، إذن هو له عناية بالحديث، وله هذه العقيدة التي اشتهرت وعرف بها العقيدة الطحاوية.
- مميزات العقيدة الطحاوية.
- ❖ موضوع هذه العقيدة المختصرة على طريقة أهل السنة والجماعة تتضمن مسائل التوحيد.
- ❖ يمتاز هذا المتن العقدي من جهة أنه أُلِف في القرن الثاني، فيعتبر هو من المتون التي أُلِفَت مبكرًا.
- ❖ أيضًا المكانة العلمية لمؤلف هذا الكتاب، وتمتاز هذه العقيدة بأنها مختصرة شاملة، وسهولة الألفاظ والعبارات، بلفظ موجز، ولذا عني العلماء بها، بل كثرت عليها الشروح، وكثرت عليها التعليقات.
- ❖ ومع هذه الشهرة لهذا الكتاب والعناية به، شرح من مدارس مختلفة.
- ما يؤخذ علي العقيدة الطحاوية.
- ❖ ففي بعض الألفاظ والعبارات والمصطلحات التي استعملها المصنف رحمه الله، واستدرك عليه الشراح تأثره أحيانًا بمذهب مرجئة الفقهاء الأوائل في بعض المسائل،
- ❖ وأحيانًا التكرار في بعض المواضع، فقد يكرر مثلًا مسائل القدر في مواضع عديدة،
- ❖ ويستعمل أحيانًا السجع، وربما يكون هذا طبيعة المؤلفات في تلك الفترة.
- أهل العلم يبدأون كتبهم بالبسملة
- ❖ تأسيسًا بكتاب الله -عز وجل- فكل سورة في القرآن مبدوءة بالبسملة، عدا سورة التوبة.

❖ ثم أيضًا تأسيسًا بسنة النبي -عليه الصلاة والسلام-.

❖ وأيضًا يبدأون بالبسملة لما ورد في بعض الأحاديث والآثار التي يقوي بعضها بعض في فضل البدء بالبسملة.

➤ ثم بعد البسملة يأتون بالحمدلة، ومن طريقة أهل العلم أنهم في المصنفات والكتب يجمعون بين البسملة والحمدلة، والرسائل يبدأونها بالبسملة، والخطب يبدأونها بالحمدلة، هذا هو المصطلح السائد عند أهل العلم، الكتب يجمع فيها بين البسملة والحمدلة، والخطب تبدأ بالحمدلة، والرسائل سواء عامة أو خاصة يبدأونها بالبسملة.

➤ ولهم في البدء بالحمدلة طريقتان:

❖ إما أن يبدأوا بخطبة الحاجة .

❖ أو يبدأوا بما يسمى براءة الاستهلال.

➤ هذه العقيدة لم يسمها المؤلف -رحمه الله- وإنما اشتهرت بنسبتها إليه، فيقال "العقيدة الطحاوية" فاشتهرت بهذا الاسم، وإلا المصنف -رحمه الله- لم يسمها في كتابه، وإنما هذه التسمية من التلاميذ، ومن النُسخ.

➤ الاعتقاد يُطلق على شيئين:

❖ **الأول:** يُطلق الاعتقاد على ما يعقد الإنسان قلبه عليه، ويجزم به، فيُقال مثلاً: هذا اعتقاد فلان.

❖ **الثاني:** يُطلق الاعتقاد على نفس الشيء المعتقد به المعلوم، فيقال مثلاً: هذا اعتقاد أهل السنة والجماعة، وهو الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره، وهذا مثل لفظ العبادة، فإن لفظ العبادة يُطلق على شيئين:

□ يطلق على نفس التعبد الذي هو التذلل، والخضوع لله -تبارك وتعالى.

□ وتطلق العبادة على الطاعة والقربة، التي يتعبد بها الإنسان ربه -تبارك وتعالى.

➤ ولهذا العبادة لها تعريفان:

❖ **التعريف الأول:** التذلل والخضوع لله محبة وتعظيمًا.

❖ **التعريف الثاني:** تُعرّف العبادة من جهة المتعبد به، من جهة أنواعه، فيقال في تعريفها حينئذ كما عرّفها شيخ الإسلام في كتاب العبودية: "اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة".

➤ قال: (هَذَا ذِكْرُ بَيَانِ اعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ) لماذا سموا بهذا الاسم؟

لأنهم تمسكوا بسنة النبي صلى الله عليه وسلم، والجماعة لأنهم اجتمعوا عليها، وتمسكوا بها جميعًا.

➤ **أهل السنة لا ينتسبون إلى الأشخاص**، وإنما ينتسبون إلى سنة النبي صلى الله عليه وسلم فلذلك يقال لهم أهل السنة، لأنهم عُنوا بها، عُنوا بالسنة رواية ودراية، فعنوا بها من جهة أسانيدنا وصحتها، وعُنوا كذلك من جهة العمل بها، والاستدلال والاحتجاج، فيحتجون بها في مسائل الاعتقاد، ويحتجون بها في مسائل الفقه.

➤ وكذلك هم أهل الجماعة؛ لاجتماعهم على ما كان عليه صحابة النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم من أئمة الدين.

➤ ما الفرق بين القول والاعتقاد؟

القول باللسان، والاعتقاد بالقلب، والقول باللسان لابد أن يكون مبني على اعتقاد.

➤ (نَقُولُ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ مُعْتَقِدِينَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ)، "توحيد الله" ما المراد بقوله: "نَقُولُ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ"؟

❖ التوحيد هنا يشمل جميع أنواع التوحيد، الذي هو: إفراد الله -تبارك وتعالى- بما يختص به.

❖ أو يُقال: إفراد الله بالربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

❖ أو يعرف التوحيد فيقال: هو إفراد الله بالعبادة.

➤ لماذا بدأ بالتوحيد؟ (نَقُولُ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ).

هو أول واجب على المكلف، ولهذا الكافر إذا أراد الدخول في الإسلام، ما أول ما يُطلب منه؟

التوحيد، أن يشهد أن لا إله إلا الله، والنبي -عليه الصلاة والسلام- لما أرسل معاذًا إلى اليمن، قاضيًا ومُعلمًا، قال: «إنك تأتي قومًا أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعو إليه شهادة أن لا إله إلا الله»، فبدأ بالتوحيد لأهميته، وهو أول واجب بل هو آخر واجب، «من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله، دخل الجنة» فبدأ به لأهميته، لكن لاحظ العبارة هنا، قال: (نَقُولُ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ مُعْتَقِدِينَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ)، وهذا فيه تنبيه إلى أن الهداية إنما تكون بتوفيق الله -تبارك وتعالى- فال موفق مَنْ وفقه الله، والمهتدي مَنْ هداه الله، فلا حول للإنسان ولا قوة له إلا بالله -تبارك وتعالى-.

➤ ولهذا يقول لك: (نَقُولُ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ مُعْتَقِدِينَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ)، هذا ليس بذكائنا، ولا بقوتنا، وإنما ذلك بتوفيق من الله -تبارك وتعالى- فهذا فيه وجوب التعليق بالله، والاستعانة بالله -عز وجل.

➤ (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ) هذا هو الأصل الأول، التوحيد، إن الله واحد، لا شريك له، لا في ربوبيته، ولا في ألوهيته، ولا في أسمائه وصفاته، هذا فيه نفي للشريك (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَاحِدٌ)، هذا هو التوحيد، ولا يتحقق التوحيد إلا بنفي الشرك.

➤ أما من عبد الله وعبدَ غيره معه، فهل يكون موحدًا؟

هذا ليس بتوحيد، هذا شرك، ولهذا المشركون في زمن النبوة، كانوا يحجُّون، وكانوا يحبُّون الله، وكانوا يعظِّمون البيت، وكانوا يلجئون إلى الله في الشدائد، ومع ذلك كل هذه العبادات ما نفعهم، لماذا؟ لأنهم جعلوا مع الله شركاء، فالتوحيد الذي جاءت به الرسل، هو إفراد الله -تبارك وتعالى- بالعبادة، ولهذا قال لك المصنف في أول هذا المتن: (نَقُولُ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ) انتبه أيها الموحد إلى حقيقة التوحيد، وما أكثر من يدعي التوحيد اليوم، وهو يقع في بعض الشكوك، لجهله بحقيقة التوحيد، فقال لك هذا الإمام: (نَقُولُ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ مُعْتَقِدِينَ) ليس مجرد كلام، (مُعْتَقِدِينَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ) فهذا نفي للشريك في جميع أنواع التوحيد، فنفي للشريك في الربوبية، وللشريك في الأسماء والصفات، وللشريك في الألوهية التي

هي العبادة، فبدأ بهذا المعتقد المهم، الذي هو التوحيد، والذي هو أول ركن من أركان الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.
وصلّى الله على نبيّنا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

الدرس الثاني

ما الفرق بين القول والاعتقاد ؟

القول يعني: القول باللسان، وأمّا الاعتقاد: الاعتقاد بالقلب.

لماذا بدأ بالتوحيد في هذا المعتقد؟

بدأ بالتوحيد؛ لأنّه أوّل واجبٍ على المكلف، ما الدليل على أنّ التوحيد هو أوّل واجبٍ على المكلف؟ قوله -صلى الله عليه وسلم-: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

ما الفائدة من ذكر هذه العبارة؟ (بِتَوْفِيقِ اللَّهِ) (نَقُولُ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ -مُعْتَقِدِينَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ-).

أن المهتدي من هداه الله، والموفق من وفقه الله، ولهذا المسلم يستعين بربه عزّ وجلّ في أموره كلّها.

كلّ اسمٍ من أسماء الله، يتضمّن صفةً لله تبارك وتعالى؛ فالواحد من أسماء الله، والواحد دلّ على صفة الوجدانية لله تبارك وتعالى، فهو واحدٌ لا شريك له، لا في ربوبيّته، ولا في ألوهيّته، ولا في أسمائه، وصفاته.

هل يُقال: الألوهية؟ أو يُقال: الإلهية؟

كلاهما صحيح؛ لأنّ الله يؤلّه ألوهةً، وإلهةً، فلا إشكال إذا قال: توحيد الإلهية. أو قيل: توحيد الألوهية.

هذا التوحيد أيضاً يُسمّى بتوحيد العبادة؛ لأنّ الألوهية معناها العبادة، فالله المألوه المعبود، ولهذا "لا إله" لا معبود، وفُسِّرَت بهذا؛ لأنّ الألوهية تعني العبادة، ولهذا يُسمّى هذا التوحيد بتوحيد الألوهية، أو بتوحيد العبادة، فيقال: توحيد الألوهية، أو الإلهية، ويُقال كذلك توحيد العبادة.

هناك من نفى الأسماء والصفات، وهناك من أثبت الأسماء، ونفى جميع الصفات، وهناك من أثبت بعض الصفات، ونفى بعضها، فهذا التعطيل إمّا كلي أو جزئي.

أهل السُنّة يُثبتون لله الأسماء والصفات التي أثبتّها لنفسه، وأثبتها له رسوله صلى الله عليه وسلم، وينفون مع ذلك عن الله ما نفاه عن نفسه، على وجه العموم، أو على وجه الخصوص؛ ووجه العموم كما قال هنا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وهذه الوسطية في باب الأسماء والصفات -أيضاً- في كلّ مسائل الدين، هم وسط بين الغالي والجافي؛ ففي باب القدر وسط بين الجبريّة والقدريّة، وفي باب الإيمان وسط بين الوعيديّة والمرجئة، وفي باب الصحابة وسط بين الرّوافض والنّواصب، وفي باب الخوف والرجاء والوعد والوعيد وسط بين الوعيديّة والمرجئة، فهم في كلّ بابٍ من أبواب الدين وسط بين الغالي والجافي، وما أمر الله بأمرٍ إلّا وللشيطان فيه نزغتان: إمّا غلو، أو جفاء، تجد الغالي، وتجد الجافي، فهم في هذا الباب وسط بين الغلاة الممثلة، المجسّمة -المشبهة- وبين النُفّاة المعطّلة المحرّفة.

إذا قيل: (وَلَا شَيْءٌ مِثْلُهُ). هل هو نفْيٌ مجرّد، أو يتضمّن ضده من الكمال؟

والجواب: أَنَّهُ يَتَضَمَّنُ ضِدَّهُ مِنَ الْكَمَالِ؛ فإذا نفيت المثل فمعنى ذلك إثبات الوجدانية لله تبارك وتعالى، ولهذا النفي ليس نفيًا محضًا؛ بل يتضمَّن إثبات ضِدِّهِ مِنَ الْكَمَالِ.

صفات الخالق تليق به، وخصائصه تليق به تبارك وتعالى، فمن أعطى المخلوق صفات الخالق؛ كالأسماء والصفات، أو حقوق الخالق؛ كصفات الربوبية، يخلق ويرزق ويحيي ويميت، أو صرف له العبودية، التي لا تصلح إلَّا لله؛ كذبح، ونذر، وطواف، فمعنى ذلك أَنَّهُ شَبَّهَ هذا المخلوق بالخالق، حتى ولو كان هذا المخلوق ملك مقرب، أو نبي مرسل، ولهذا انظروا النبي، وهو النبي عليه الصلاة والسلام، يُقال فيه: عبد الله ورسوله، فهو عبدٌ لا يُعبد، ورسولٌ لا يُكذَّب، فلا يُرفع عن مقام العبودية، ومقام النبوة والرسالة، إلى مقام الألوهية أو مقام الربوبية، ولا يحط من مقام النبوة والرسالة إلى أن يكون مخلوقًا كسائر البشر؛ بل يُنزل عليه الصلاة والسلام المنزلة اللائقة به، ولهذا لماذا نقول في محمد عليه الصلاة والسلام وفي عيسى قبله: عبد الله ورسوله؟ عبدٌ لا يُعبد؛ هذا ردُّ على الغلاة، ورسولٌ لا يُكذَّب؛ ردُّ على الجفاة، هذه المنزلة اللائقة به، النبوة والرسالة، إذا رُفِعَ عن هذه المنزلة، فأعطي صفات الربوبية فمعناه غلو، وتشبيهه للمخلوق بالخالق، أو عُبد من دون الله، وحُلف به من دون الله، فمعناه -أيضًا- أَنَّهُ صرفت للمخلوق خصائص الخالق وهي العبودية والألوهية.

قال سبحانه وتعالى في سورة الشورى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. هذه الآية تُعتبر قاعدةً عند أهل السُنَّة والجماعة في باب الأسماء والصفات، وهذه القاعدة يُمكن أن يُستنبط منها العديد من القواعد.

❖ القاعدة الأولى: أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَمَعَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ،

لماذا الجمع بين النفي والإثبات؟

لأنَّ النفي وحده ليس بتوحيد، لو أن إنسان أخذ يمدح ويُعِدِّد ويُفصِّل في النفي، هل هذا توحيد؟ ليس بتوحيد، والإثبات وحده لا ينفى الشريك.

متى يكون التوحيد؟

عندما تجمع بين النفي والإثبات مثل كلمة التوحيد

❖ القاعدة الثانية: النفي مقدَّمٌ على الإثبات،

قال أهل العلم: لأنَّ التخلية قبل التحلية؛ يعني تُنَزَّه الخالق أوَّلًا ثم تصفه بصفات الكمال.

❖ القاعدة الثالثة: النفي مجمل والإثبات مفصَّل

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، هذا نفي مجمل والإثبات مفصَّل، وهذا أبلغ في الثناء على الله، وهذه طريقة القرآن وطريقة النبي عليه الصلاة والسلام في سنَّته.

❖ القاعدة الرابعة: في الجمع بين النفي والإثبات دليلٌ على أَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنَ النَّفْيِ التَّعْطِيلُ،

لماذا؟ لأنَّ الله قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ التنزيه ونفي الصفات لا يلزم منه التعطيل؛ لأنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ فتنزيه الخالق ونفي المماثلة لا يلزم منه التعطيل.

❖ القاعدة الخامسة: لا يلزم من الإثبات التمثيل،

ولهذا إذا أثبت أن الله سميع بصير، هل يلزم من الإثبات التمثيل؟ لا يلزم،

❖ القاعدة السادسة: في الآية ردُّ على المعطلة والمحرفة المئولة،

المعطلة نفاة الصفات، إمَّا تعطيلًا كليًا أو جزئيًا، أين الردُّ؟ قوله ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فهذا ردُّ على من يُعطِّل الصفات، أو يُحرِّف معانيها، والتحريف نوعٌ من التعطيل، وإن كانوا هم أحيانًا يُسمُّونه تفويضًا، وتفويض المعاني هو تعطيل؛ هو تعطيلُ لكلام الله تبارك وتعالى.

❖ القاعدة السابعة: فيها ردُّ على المشبهة الممثلة،

أين؟ في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، هؤلاء المشبهة الممثلة المجسمة لجئوا إلى ذلك فرارًا من ماذا؟ فرارًا من التعطيل، قالوا: لو أننا نرَّهنا الخالق فيلزم من التنزيه التعطيل -نقول: ليس بلازم- فأرادوا الفرار من هذا المعنى، فوقعوا في ضده وهو التشبيه والتمثيل.

المشبهة الممثلة أرادوا الفرار من التعطيل فوقعوا في التشبيه، فوقعوا فيما فرُّوا منه، لأنَّهم عطَّلوا الخالق عن صفاته اللائقة به.

المحرِّفة المعطلة فرُّوا من التشبيه، فوقعوا في التعطيل، فوقعوا فيما هو أسوأ ممَّا فرُّوا منه؛ لأنَّهم فرُّوا من تشبيهه -كما يزعمون- بالمخلوقات، فشبهوه بالمعدومات.

❖ القاعدة الثامنة: قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. شيءٌ نكرةٌ في سياق النفي،

والقاعدة عند أهل العلم: النكرة في سياق النفي والنفي والشرط والاستفهام، تُفيد العموم.

فما العموم هنا الذي أفادته هذه الآية؟ أن الله عزَّ وجلَّ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، هذا عامٌّ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وبالتالي لا يُماثلُه أحدٌ من خلقه، لا ملكٌ مقربٌ، ولا نبيٌّ مرسلٌ، ولا ما دون ذلك من سائر الخلق.

❖ القاعدة التاسعة: في الآية إثبات اسمين من أسماء الله الحسنى،

وهما: السميع والبصير.

❖ القاعدة العاشرة: فيها إثبات ثلاث صفاتٍ من صفات الله،

في الآية إثبات ثلاث صفات من صفات الله،

□ الصفة الأولى: صفة السمع،

□ الصفة الثانية: صفة البصر؛ لأنَّه ما من اسمٍ إلَّا ويتضمَّن صفة، وهاتان الصفتان صفتان ثبوتيتان.

□ الصفة الثالثة: صفة منفية، وهي نفي المثل، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

النبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»، ما معنى أحصاها حتى ينال هذا الفضل العظيم؟

حفظها، وعرف المعنى، وعمل بالمقتضى، ولهذا مثل هذه القواعد تُعينك على حفظها ومعرفة المعاني، وكذلك تُعينك على اللوازم والمقتضيات، فيكون لديك هذا الفقه، وهذا هو الفقه، «وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ».

﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، هل المقصود هنا هو نفي وجود الآلهة، أو نفي لحقيقتها؟

- نفْيُ للحقيقة، توجد معبودات، حقيقةً هي موجودة، ولكن هذه المعبودات باطلة، فَإِذَنْ النفي هنا نفْيُ للحقيقة، بناءً على هذا المعنى، فما معنى لا إله إلا الله؛ لا معبود بحقٍ إلا الله.
- قوله: (لا إله غيره)؛ يعني لا إله يستحقُّ العبادة ولا إله معبود بحقٍ إلا الله تبارك وتعالى، أمّا وجود هذه المعبودات فهي موجودةٌ في كلّ زمانٍ ومكانٍ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله.
- التوحيد بهذا التقسيم هل هو تقسيم اصطلاحي، تقسيم حادث، أو هو تقسيم شرعي؟
- بالاستقراء والتتبع هو تقسيم شرعي كيف تجيب من يُنكر هذا التقسيم؟.
- الآية التي قال الله سبحانه وتعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ [مريم: ٦٥].
- أين وجه الدلالة فيها؟
- ✓ وجه الدلالة قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، توحيد الربوبية.
- ✓ ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾، توحيد الألوهية.
- ✓ ﴿هَلْ نَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾، توحيد الأسماء والصفات.
- أهل السنة تجدهم يعتمدون في فهم العقيدة على الكتاب وعلى السنة وعلى فهم سلف الأمة، لماذا يعتمدون فهم سلف الأمة؟
- ❖ لأنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم عندما أشار إلى حديث الافتراق، قال: «مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي».
- ❖ أثني عليهم بأنهم هم خير القرون.
- ❖ أنَّ الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم- هم أهل لغة، وشهدوا التنزيل، وهم حملة الدين، ورواته، هم حفظة القرآن.
- أهل السنة يجعلون الوحي هو المقدم هو الإمام، بعد ذلك يأتي الفهم، أهل الأهواء تُقرّر الأحكام ثم تستجلب النصوص بعد ذلك؛ فالنصوص عندهم تابعة، أو متبوعة؟ تابعة وليست متبوعة، بينما أهل السنة لا؛ النصوص متبوعة، هي المقدم.
- هم بالعكس، تُقرّر القواعد العقلية والفلسفية والمنطقية ثُمَّ تُستجلب النصوص، النصوص التي تُوافقهم يأتون بها، تُوافق ما وافقوه من أحكام، وإذا خالفت فإنما تُردُّ وإلا تأوّل أو تُحرّف، فهذا هو الفرق المنهجي في طريقة الاستدلال بين أهل السنة والجماعة وبين مخالفهم من أهل الأهواء.
- كتب العقيدة هي أعم. كتب العقائد أوسع وأشمل فيها عموم، بينما كتب الإيمان تتعلّق بحقيقة الإيمان، بشعب الإيمان، بزيادة الإيمان ونقصانه، بدخول الأعمال في مسعى الإيمان، في الفرق بين الإسلام والإيمان، والغالب الرد على المرجئة، الذين يُخرجون الأعمال عن مسعى الإيمان، أو يُخرجون أقوال اللسان عن مسعى الإيمان، أو يُنكرون الزيادة والنقصان، أو تفاضل أهل الإيمان في الإيمان.
- وقد تشمل كتب التوحيد الأنواع الثلاثة، مثل: كتاب التوحيد لابن منده، كتاب التوحيد لابن خزيمة. فتجد كتب التوحيد تعنى بأنواع التوحيد، وحقيقة التوحيد، وربّما أحياناً يُفصّلون في بابٍ من الأبواب.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

الدرس الثالث

➤ "والأول والآخر والظاهر والباطن" هذه الأسماء تدل على الإحاطة الزمانية، والإحاطة المكانية، وأنَّ الله -تبارك وتعالى- محيطٌ بكل شيء، ولهذا قال الله -تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء: ١٢٦]، فهو -عز وجل- المحيط بكل شيء علماً وقُدرةً، ورحمةً، وقهراً.

➤ هذان الاسمان "القديم والدائم"، لم يردا في الكتاب والسنة.

➤ أهل العلم يقولون: باب الخبر أوسع من باب الوصف، فيمكن للإنسان أن يُخبر عن الله -تبارك وتعالى- لا على جهة الوصف، وإنما على جهة الخبر، فباب الإخبار أوسع من باب الصِّفات، كما أنَّ باب الصِّفات أوسع من باب الأسماء. ما معنى هذه القاعدة؟

➤ باب الصِّفات أوسع من باب الأسماء. من جهة أن الصِّفات مصادرها أوسع، فتؤخذ الصِّفة من الفعل، وتؤخذ الصِّفة من الاسم، أو يُنصُّ على الصِّفة، بينما الأسماء توقيفية، ولا تُشتق، أمَّا الصِّفات فتُشتق من الأفعال، وتُشتق من الأسماء، أو يُنصُّ عليها، فباب الصِّفات أوسع من باب الأسماء، وباب الإخبار أوسع من باب الصِّفات.

➤ ما لم يرد فيه نصٌّ بنفي ولا إثبات من الأسماء والصِّفات، فإن أهل العلم يتوقفون في الألفاظ، ويستفصلون في المعاني.

➤ القِدَم نوعان:

❖ قِدَم مُطلق.

❖ قِدَم نسبي.

➤ القِدَم النَّسبي يكون بين المخلوقات، فتقول: هذا المخلوق قديم، نسبة لما قبله، كما قال الله -تبارك وتعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩]، هذا العُرجون قديم بالنسبة إلى ما قبله، هذا يسمونه القِدَم النَّسبي الذي يكون بين المخلوقات، فيقال: هذا الشيء قديم بالنسبة لما قبله، بينما الخالق -عز وجل- يوصف بالقِدَم المُطلق، الذي ليس قبله شيء، ولهذا لاحظوا النَّبي -صلى الله عليه وسلم- كيف فسَّر "الأول" الذي ليس قبله شيء، ففسَّر الصِّفة الثبوتية بالنفي المطلق، أي الذي ليس قبله شيء، وقال: «الْآخِرُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ»^١، فيوصف بالقِدَم المُطلق.

➤ هل ثَمَّة فرق بين الفناء والبيد؟

والجواب: هما معنيان متقاربان، الفناء دلَّ عليه قول الله -تبارك وتعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، والبيد دلَّ عليه قوله -تبارك وتعالى- في خبر المُنكر للبعث: ﴿مَا أَظُنُّ

^١ تفسير القرآن لابن كثير (٣١/٨).

﴿أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: ٣٥]، ولهذا قال لك: (لَا يَفْنَى وَلَا يَبِيدُ) تأكيداً لمعنى قوله: (دَائِمٌ بِلَا انْتِهَاءٍ)، وهذه المعاني كلها يدل عليها قوله صلى الله عليه وسلم: «الْآخِرُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ».

المشيئة هي مُرادفة للإرادة الكونية، والإرادة والقضاء والإذن؛ هذه الصِّفات تنقسم إلى قسمين بحسب هذا الجدول.

❖ **القسم الأول:** الإرادة الكونية، أو القدرية، أو الخلقية.

❖ **القسم الثاني:** الإرادة الدينية، أو الشرعية، وهي المتعلقة بالأمر والنهي.

□ **مثال الإرادة الكونية:** قوله -تبارك وتعالى: ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، وهذا الذي قصده المؤلف -رحمه الله- بقوله: فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

□ **مثال الإرادة الشرعية:** كقوله -تبارك وتعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، المشيئة هي المرادفة للإرادة الكونية، أمّا الإرادة الشرعية هي متعلقة بالأحكام الشرعية.

الإرادة الكونية هذه عامة لكل ما يُحبه الله ويرضاه، وما لا يحبه ولا يرضاه.

➤ **كيف يريد أشياء كوناً وهو لا يحبها ولا يرضاهما شرعاً؟**

والجواب نقول: أرادها -تبارك وتعالى- لحكمة وابتلاء، ولهذا لا يلزم من الإرادة الكونية أن تكون محبوبة لله، فقد يريد أشياء وإن كان لا يحبها ولا يرضاهما لحكمة، والله -عز وجل- هو الحكيم في خلقه، حكيم في قدره، حكيم في أمره ونهيه.

أمّا الإرادة الشرعية فيلزم منها المحبة والرضا، فهي المحبوبة لله، وأوامره محبوبة له -تبارك وتعالى- وكذلك ترك نواهيه محبوب لله -تبارك وتعالى-.

➤ **الإرادة الكونية يلزم منها الوقوع، فلا بد أن تقع، وهي متعلقة بالقدر، أمّا الإرادة الشرعية، فلا يلزم منها الوقوع.**

➤ **التفريق بين الإرادتين مهم، وتزول به إشكالات كثيرة؛ لأن من جعل الإرادة واحدة ضلّ في باب القدر، وهذا هو سبب ضلال "الجبرية".**

➤ **أمّا سبب ضلال "القدرية" هو عدم التفريق بين الإرادتين.**

➤ **ولهذا لما فرّق أهل السُّنة بين الإرادتين زال الإشكال، وكما تقدّم لنا في باب الأسماء والصِّفات، لما غلب المعطلة النّفي، وقعوا في إشكالات كثيرة، ولما غلب المُمثلة الإثبات، وقعوا في إشكالات كثيرة، وأهل السُّنة جمعوا بين النّفي والإثبات فزال الإشكالات عنهم التي وقع فيها المعطلة، ووقع فيها المُمثلة المشبهة المجسّمة.**

➤ **هاتان الإرادتان قد تجتمعان وقد تفرقان، ولهذا يُقسّمها أهل العلم على طريقة السّر والتّقسيم إلى أربعة أقسام، فيقولون:**

❖ **إرادة كونية شرعية.**

❖ **إرادة كونية لا شرعية.**

❖ **إرادة شرعية لا كونية.**

❖ إرادة لا شرعية ولا كونية.

- ❑ مثال الإرادة الكونية الشرعية: كإيمان أبي بكر رضي الله عنه.
- ❑ مثال إرادة كونية وقعت ولكنها غير محبوبة لله، مثل: كفر أبي جهل.
- ❑ مثال إرادة شرعية لا كونية: مثل إيمان أبي جهل، وإيمان أبي طالب.
- ❑ مثال إرادة لا شرعية ولا كونية: مثل: كفر أبي بكر. فهي لم تقع كونا بحمد الله، وكذلك غير محبوبة لله شرعاً.

➤ القدرة على نوعين:

❖ النوع الأول: القدرة الأوائل أتباع معبد الجني وغيلان اليمشيقي، الذين نفوا مراتب القدر الأربعة، نفوا علم الله بأفعال العباد، ونفوا كتابته لأفعال العباد، ونفوا مشيئته وخلقه، ولكن هل يعني هذا أنهم نفوا العلم المطلق والكتابة المطلقة والمشيئة المطلقة والخلق المطلق؟

❖ النوع الثاني: ثم جاء بعدهم القدرة الثانية وهم المعتزلة، أثبتوا علم الله بأفعال العباد، وأثبتوا كتابته لأفعال العباد، ولكنهم قاموا بنفي المشيئة والخلق.

➤ في بعض كتب المتكلمين يقولون: كل ما خطر ببالك عن الله فإن الله بخلاف ذلك. فهل هذه العبارة مستقيمة؟ والجواب: مثل هذه العبارات عبارات مجملة تحتل معاني صحيحة، وتحتل معاني باطلة.

➤ أهل السنة يثبتون المعاني، ويفوضون الكيف، كما قال الإمام مالك -رحمه الله- لما سُئل عن الاستواء، قال: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة".

➤ كيف يُعالج ما يُوقعه الشيطان في بعض نفوس الناس من هذه الخيالات والأوهام التي ترد عليهم في صفات الرب -تبارك وتعالى؟

قد جاء في الصحيحين أن ناساً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم سألوه فقالوا: "إننا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به"، يعني: مثل هذه الخواطر والوساوس التي ترد على بعض الناس قد اشتكى منها الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم- فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «وَقَدْ وَجَدْتُموه؟» يعني إنكار القلوب وتعاظم القلوب من أن تتكلم بهذا. قالوا: نعم -وهو الإنكار- قال: «ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ»^٢.

➤ العلاج لهذه الأوهام والوساوس التي ترد على بعض النفوس، والتي يُوردها الشيطان بالذات فيما يتعلق بصفات الرب -تبارك وتعالى-، فنقول: العلاج كما دلّت عليه هذه الأحاديث:

❖ أولاً: الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم.

❖ ثانياً: ينتهي عن الاسترسال.

❖ ثالثاً: ضبط النفس بذكر الله -تبارك وتعالى- وعدم الاستمرار في هذه الوسواس.

❖ رابعاً: الانشغال بالعبادة، ومن ذلك الانشغال بذكر الله والاستغفار.

❖ خامساً: اللجوء إلى الله بالدعاء والمعاذة من هذه الوسواس.

^٢ صحيح مسلم (١٣٢).

الدرس الرابع

- الحَيُّ: أي ذو الحياة الكاملة التَّامة، المتضمِّنة لجميع صفات الكمال، الحياة التي لم يسبقها عَدَم، ولا يلحقها زوال، ولا يعتريها نقص بأيِّ وجهٍ من الوجوه.
- الربِّ -تبارك وتعالى- إذا اتَّصف بصفة الحياة الكاملة التَّامة، التي لا يلحقها فناء ولا عَدَم، فهو أحقُّ بأن يتوكل عليه، فالذين عبدوا الأصنام من دون الله، عبدوها رجاء أن تُفَرِّج الكروب عنهم، ورجاء النَّفع، وكشف الضُّرِّ، فبيَّن الله -عزَّ وجلَّ- أنَّ هذه المعبودات لا تنفع ولا تضر، وإنَّما الذي ينفع هو الحي، فهذا يوجب على المسلم أن يتوكل على الله -تبارك وتعالى- ولهذا قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾، فَمَنْ هذه صفته - وهي الكمال المطلق- الحي الحياة الكاملة، فهو حَرِيٌّ أن يتوكل المسلم عليه -عزَّ وجلَّ-.
- والتوكل: هو اعتماد القلب على الله -عزَّ وجلَّ- مع الثِّقة به، والأخذ بالأسباب المشروعة، فإذا علِمَ المسلم أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- هو الحي، توكل عليه توكلًا تامًّا في جميع أموره، وجميع شئون حياته.
- إذا علم أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- هو الحي استعان به، والتجأ إليه؛ لأنه -عزَّ وجلَّ- هو الحي الذي لا يموت، أمَّا هؤلاء الذين عَبدوا مِن دون الله، فهم يعبدون ويدعون ما لا ينفعهم، ولهذا يقول -تبارك وتعالى-: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢٠، ٢١]، فكيف يُتَوَكَّل على مَنْ كانت هذه صفته؟!
- ومن ثمرات الإيمان بهذا الاسم، فيؤمن بأنَّه -عزَّ وجلَّ- هو الحي، ويؤمن بصفة الحياة التَّامة الكاملة المطلقة، ثم الآثار المترتبة على ذلك، ومن ذلك التوكل عليه -عزَّ وجلَّ- والالتجاء إليه، والاستعانة به -عزَّ وجلَّ- والإيمان بالاسم يتضمن ثلاثة أمور:
- ❖ أن تؤمن بالاسم.
 - ❖ والصفة المشتقة من هذا الاسم.
 - ❖ والآثار المترتبة على ذلك.
- في قول النبي -عليه الصلاة والسلام-: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعُونَ اسْمًا، مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدَةً، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»، وأحصاها يعني: عرف المعنى، وعمل بالمقتضى.
- ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ يشمل التَّوسُّل بهذه الأسماء، بأن تُقدِّم بين يدي مسألتك ما يناسب من أسماء الله الحسنى، وكذلك تتعبَّد لله -عزَّ وجلَّ- بآثار هذه الأسماء، ومن ذلك التوكل عليه، فتتوكل على الحي الذي لا يموت، وتلتجئ إليه، وتستعين به -عزَّ وجلَّ- لأنَّه الحي الذي لا يموت.
- بعض الناس يقولون إنَّ الله -عزَّ وجلَّ- قد سَمِيَ بعض المخلوقات بالحي، فقال: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٩]، فقد يُقال إنَّ الله -عزَّ وجلَّ- سَمِيَ المخلوق بالحي.

والجواب: حياة المخلوق تختلف عن حياة الخالق، فحياة الخالق حياة تامة كاملة، لا نقص فيها بوجه من الوجوه، والمخلوق حياته مقيدة بوجوده، وكون الأسماء تشترك فهذا لا يعني التماثل في الحقائق.

القِيُومُ من أسماء الله الحسنى، وهي صيغة مبالغة، وقد سَمَّى الله -عزَّ وجلَّ- نفسه بهذا الاسم في كتابه في مواضع عديدة، ومنها آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

القِيُومُ معناه: القائم بنفسه -عزَّ وجلَّ- فليس بحاجة إلى غيره في وجوده، ولا في شيء من صفاته، ولا في شيء من أفعاله، فهو مستغنٍ -عزَّ وجلَّ- عن كل شيء، فهو الغني -سبحانه وتعالى- وغيره لا يقوم إلا به، غيره محتاج إليه، في إيجاده، وإمداده، وفي إعداده، أمَّا الرَّبُّ -تبارك وتعالى- فهو القِيُومُ القائم بنفسه.

كذلك من معاني القيوم: أنَّه القائم على شؤون خلقه، فغيره يحتاج إليه، كما قال -عزَّ وجلَّ-: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، والمخلوق لا يقوم بنفسه، بل يحتاج إلى خالقه -عزَّ وجلَّ-.

الله -تبارك وتعالى- قد نفى صفة النوم عن نفسه، في قوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ لأنَّ النَّوْمَ صفةٌ نقصٍ، ولأنَّه -عزَّ وجلَّ- كاملٌ في حياته، فلا تأخذه السَّنة، والسَّنة هي مقدمات النَّوْم، وكذلك لا يحتاج إلى النَّوْم؛ لكمال قِيُوميَّته -تبارك وتعالى- وإنَّما الذي يحتاج إلى النَّوْم هو المخلوق الضَّعيف لنقصه.

قال أهل العلم: صفة الحياة تدل على الكمال الذاتي، وصفة القيومية تدل على الكمال السلطاني.

الكمال الذاتي الذي يشمل كمال العلم، وكمال السمع، وكمال البصر، وكمال القدرة، وكمال العزة، وكمال الحكمة، وكمال الرحمة، ونحوها من الصفات الذاتية.

القيوم تضمن الكمال السلطاني، الكمال الفعلي، والذي يشمل الخلق، والتدبير، والإحياء، والإماتة، والإعزاز، والإذلال، والعطاء، والمنع، والخفض، والرفع، إلى غير ذلك من المعاني.

ينبغي للمسلم أن يُكثر في دعائه من قول: يا حي يا قيوم، يتوسل إلى الله -عزَّ وجلَّ- بهذين الاسمين العظيمين الدالان على الكمال الذاتي، والكمال الفعلي.

المشركون لم ينكروا أن الله -عزَّ وجلَّ- هو الخالق، كما لم ينكروا بأنَّه هو الرب، وإنَّما كان الإشكال عندهم في صرف العبادة لله -تبارك وتعالى-، أمَّا الإقرار بأنَّ الله هو الخالق، وهو الرازق، فكانوا يُقرون بذلك، وإنَّما كان شركهم في العبودية، فالخالق هو الله -تبارك وتعالى-.

الإيمان بأنَّه الخالق يثمر للمؤمن ثمرات عظيمة، من ذلك

❖ الإيمان بوحديته -تبارك وتعالى- وإلهيته وإفراده بالعبادة؛ لأنه يعلم أنَّه هو الخالق، وخالقه -عزَّ وجلَّ- عام يشمل جميع المخلوقات، وبما في ذلك أفعال العباد، فأفعال العباد مخلوقة لله -تبارك وتعالى- كما قال -سبحانه وتعالى-: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

❖ عظمة المخلوقات تدل على عظمة خالقها، فعظمة الكرسي، وعظمة العرش، وعظمة السموات والأرض وكل ما تشاهده في آيات الله وفي عظمته تدل على عظمة خالقها، فخالق العظيم عظيم، ولهذا كان التدبر والتفكير والتأمل في مخلوقات الله يدل على عظمة خالقها - سبحانه وتعالى -.

➤ رزقه - تبارك وتعالى - لعباده على نوعين، هناك رزق عام لكل المخلوقات مما تنتفع به في معاشها، يشمل الرزق للمؤمن والكافر، يشمل الرزق الذي يتناوله الإنسان مما أحله الله أو مما هو حرام، فهذا هو رزق عام، أما الرزق الخاص فهو لعباده المؤمنين، بالعلم النافع والعمل الصالح.

➤ إذا كان الله هو الرازق، هل يعني ذلك أن الإنسان يتكل على ما هو مكتوب، والله - عز وجل - قد كتب الأرزاق كما كتب الآجال؟ ويعتقد أن هذا هو التوكل.

الأخذ بالأسباب هو من التوكل على الله - تبارك وتعالى -، أمّا الاعتماد على ما هو مكتوب، وترك الأخذ بالأسباب، هذا تواكل وليس بتوكل، فثقتة بالله، واعتماده على الله، وإيمانه بأن الله - عز وجل - هو الرازق، وأنه يرزق من يشاء، هذا لا يجعله يترك الأخذ بالأسباب المشروعة، التي شرعها الله - عز وجل -، بل يبذل الأسباب، ويعلم أن الرازق هو الله - عز وجل -، وأنه يرزق من يشاء.

➤ لو أن جميع الخلق من أولهم إلى آخرهم، قاموا في صعيد واحد، فسألوا الله - عز وجل - فأعطى كل إنسان مسألته، مَا نَقَصَ مِنْ مُلْكِ اللَّهِ - عز وجل - شيئاً، كما جاء في الحديث القدسي

➤ **هل الميت من أسماء الله الحسنى؟**

الحي من أسماء الله ، لكن هل الميت من أسماء الله الحسنى؟ فَيَعْبُدُ الإنسان ابنه بعبد الميت. عبد الحي لا إشكال، ولكن الميت ليس من أسماء الله الحسنى، كذلك المحيي، وإنما الثابت هو الحي، وأما المحيي وصف، والميت هو وصف، وكما تقدّم بأن الأسماء توقيفية، فلا يُسمى الله - عز وجل - إلا بما سَمِيَ به نفسه.

➤ لا تُشتق الأسماء، لا من الصفات ولا من الأفعال، أمّا الصفة فتؤخذ من الاسم، وتؤخذ من الفعل، أو ينص عليها، فمن صفاته أنه يحيي ويميت، ولكن لا يسمى بالميت، وكذلك لم يثبت اسمه المحيي.

➤ **أمّا اسم الله الموجود في أسماء الله الحسنى "النافع، الضار"، فما قولكم في هذا "الضار"؟**

طبعاً في بعض الأسماء تثبت بما يقابلها، وليس مجرداً فبعضها يعني تثبت بما يقابلها، في جهة المقابلة، مع أن بعض الأسماء مثل الحديث الذي فيه التعداد، فيه ضعف، ومعلوم أن الأحاديث الضعيفة لا يُعتمد عليها في إثبات الأسماء والصفات، ولهذا فالأسماء والصفات يُعتمد على جاء في كتاب الله، أو ما صحَّ عن النبي - صلى الله عليه وسلم -، ولهذا بعض هذه الأسماء قد ترد في بعض الأحاديث الضعيفة، ولكن الحديث الضعيف لا يُعتمد عليه في باب إثبات الأسماء لله - تبارك وتعالى -.

➤ **هل البعث تجديد للخلق أم إعادة؟**

إعادة، والدليل قوله - عز وجل -: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

الدرس الخامس

➤ مُعتقد أهل السُّنَّة والجماعة في صفات الله -عَزَّوَجَلَّ- أنَّهم يُثبتون لله مَا أثبتته لنفسه بكتابه، وَمَا أثبتته له رسوله صلى الله عليه وسلم في سُنَّتِه الصَّحِيحَةِ بلا تحريفٍ ولا تكييفٍ ولا تمثيلٍ ولا تعطيلٍ، وَيُزَيِّهون الله -تبارك وتعالى- عَمَّا نَزَّهَ نفسه عنه في كتابه، وَمَا نَزَّهَ عنه رسوله صلى الله عليه وسلم.

➤ مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ الصِّفَاتِ الْوَارِدَةَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى نَوْعَيْنِ:

❖ **النوع الأول:** الصِّفَاتِ الَّتِي أُثْبِتَهَا -تبارك وتعالى- لِنَفْسِهِ عَلَى الْوَجْهِ اللَّائِقِ بِهِ.

❖ **النوع الثاني:** الصِّفَاتِ الْمُنْفِيَّةِ الَّتِي نَفَاهَا اللَّهُ -تبارك وتعالى- عَنْ نَفْسِهِ، كَنَفِي "السِّنَّةِ" وَنَفِي "النُّومِ"

مَعَ إِثْبَاتِ ضِدِّهَا مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ.

➤ **والصِّفَاتِ التَّبَوُّتِيَّةِ نَوْعَانِ:**

❖ **صفات ذاتيَّة ملازمة لله -تبارك وتعالى- لَا تَنفَكُ عَنْهُ بِأَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ.**

❖ **أَمَّا الصِّفَاتِ الْفَعْلِيَّةُ -أَوْ الصِّفَاتِ الْاِخْتِيَارِيَّةُ- فَهِيَ الْمُتَعَلِّقَةُ بِالْمَشِيئَةِ، فَيَتَكَلَّمُ مَتَى شَاءَ، وَيَجِيءُ مَتَى**

شَاءَ، وَيَنْزِلُ مَتَى شَاءَ عَلَى الْوَجْهِ اللَّائِقِ بِهِ سُبْحَانَهُ.

➤ **الصِّفَاتِ الْفَعْلِيَّةُ -أَوْ الَّتِي يُسَمِّيهَا أَهْلُ الْعِلْمِ بِالصِّفَاتِ الْاِخْتِيَارِيَّةِ- مِنْ حَيْثُ ذَاتِيَّةُ: أَيِ: لَا تَنفَكُ عَنْ**

الْخَالِقِ -عَزَّوَجَلَّ- وَهُوَ مُتَّصِفٌ بِهَا فِي الْأَزَلِّ وَالْأَبَدِ، أَمَّا مِنْ حَيْثُ الْآحَادِ فَهِيَ فَعْلِيٌّ

➤ **(مَا زَالَ) وَ (لَا يَزَالُ) مَعْنِيَانِ مُتَقَابِلَانِ، (مَا زَالَ) أَيِ: يَدُلُّ عَلَى الدَّوَامِ فِي الْمَاضِي، وَ (لَا يَزَالُ) يَدُلُّ عَلَى الدَّوَامِ**

فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

➤ **وَاللَّهُ -تبارك وتعالى- مُتَّصِفٌ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، سَوَاءً صِفَاتِ ذَاتِيَّةٍ أَوْ صِفَاتِ فَعْلِيَّةٍ، فَهُوَ مُتَّصِفٌ بِهَا فِي الْأَزَلِّ**

وَالْأَبَدِ، بِمَعْنَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فَاقِدًا لَصِفَةٍ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ، فَهُوَ مُتَّصِفٌ بِهَا قَبْلَ خَلْقِهِ

لِيَخْلُقَهُ وَبَعْدَ خَلْقِهِ لِلْخَلْقِ.

➤ **وَلِهَذَا لَا يُقَالُ: إِنَّ اللَّهَ -تبارك وتعالى- قَدْ اتَّصَفَ بِصِفَةٍ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مُتَّصِفًا بِهَا. لِمَاذَا؟**

لأنَّه لَهُ الْكَمَالُ الْمَطْلُوقُ، وَإِذَا قُلْتَ: إِنَّهُ اتَّصَفَ بِالصِّفَةِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مُتَّصِفًا بِهَا، فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى النِّقْصِ،

وَاللَّهُ -تبارك وتعالى- مُنَزَّهٌ عَنِ النِّقْصِ -جَلَّ جَلَالُهُ- فَلَهُ الْكَمَالُ الْمَطْلُوقُ فِي كُلِّ شَيْءٍ.

➤ **وَالَّذِي دَعَا الْمُعْطَلَةَ إِلَى نَفْيِ هَذِهِ الصِّفَاتِ: أَنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّ إِثْبَاتِ الصِّفَاتِ لِلَّهِ فِي الْأَزَلِّ يَقْتَضِي تَعَدُّدَ الْأَرْبَابِ،**

وَهَذَا غَيْرُ وَارِدٍ. لِمَاذَا؟

لأنَّ الصِّفَاتِ غَيْرَ مُنْفَكَةٍ وَغَيْرَ مُنْفَصِلَةٍ عَنِ الذَّاتِ، وَالَّذِي أَوْقَعَهُمْ فِي هَذَا الْإِنْكَارِ هُوَ تَوَهُّمُهُمْ أَنَّ الصِّفَاتِ

مُنْفَكَةٌ عَنِ الذَّاتِ، وَلِهَذَا قَالَتِ الْمُعْتَزَلَةُ: إِنَّ الصِّفَاتِ مَخْلُوقَةٌ وَإِنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ -تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ- لِأَنَّهُمْ

ظَنُّوا أَنَّ الصِّفَةَ مُنْفَكَةٌ عَنِ الذَّاتِ، وَالصَّحِيحُ أَنَّ صِفَاتِهِ -عَزَّوَجَلَّ- مُتَعَلِّقَةٌ بِذَاتِهِ، فَإِثْبَاتِ الصِّفَاتِ فِي الْأَزَلِّ

لَا يَلْزَمُ مِنْهُ تَعَدُّدُ الْأَرْبَابِ؛ لِأَنَّ الصِّفَةَ لَيْسَتْ مُنْفَكَةً عَنِ الذَّاتِ.

➤ **كَيْفَ تَفَرِّقُ بَيْنَ كَوْنِ الْمُضَافِ لِلَّهِ مِنْ صِفَاتِهِ، وَبَيْنَ كَوْنِ الْمُضَافِ إِلَى اللَّهِ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ؟**

إذا كان المضاف إلى الله أمرًا قائمًا بنفسه كـ "ناقة الله" و "بيت الله"، فتكون الإضافة هنا إضافة تشریف، من باب إضافة مخلوق إلى خالقه؛ لأنَّ المضاف هنا عين مستقلة، وأمَّا إذا كان المضاف إلى الله ليست عينًا مستقلة، كما تقول: "كلام الله". فحينئذ تكون الإضافة هنا من باب إضافة الصِّفة إلى الموصوف.

➤ **القدم نوعان: قدم نسبي، و قدم مُطلق.**

❖ **القدم النسبي:** هو الغالب في استعمالات النَّاس، فيقولون: هذا الشيء قديم. أي: بالنسبة لما بعده.

❖ **القدم المطلق:** هو الذي بمعنى "الأوَّل" أي: الذي ليس قبله شيء.

➤ **القول في الصِّفات كالقول في الذات، فكما نُثبت أنَّ لله -عَزَّ وَجَلَّ- ذاتًا تليق بجلاله، كذلك نُثبت أنَّ لله -عَزَّ وَجَلَّ- صفاتًا تليق بجلاله.**

➤ **فَمِنْ أَسْمَاءِ "الخالق" ومن صفاته "الخلق" وصفة الخلق: هي الإيجاد والتدبير والتقدير.**

➤ **ومن أَسْمَاءِ البارئ، والبارئ: هو الذي يُحدث الشيء من العدم.**

➤ **قيل في الفرق بين الخالق والبارئ:**

❖ **الخالق: الذي خَلَقَ كُلَّ شيء وأوجده ودَبَّرَ شؤونه.**

❖ **والبارئ: الذي جعل لكل مخلوق صورة يَتميز بها.**

➤ **من خصائص الربوبية: "الخلق والتدبير والإيجاد"، فصفة الخلق مُتَّصف بها قبل إيجاد المخلوقات. والربوبية تشمل الخلق وتشمل تربية عباده، فهو المربي لهم، وهو حافظهم ومدير أمورهم.**

➤ **باب الإخبار أوسع من باب الصِّفات، وباب الصِّفات أوسع من باب الأسماء، والأسماء توقيفية.**

➤ **وأهل السُّنَّة والجماعة كما يستدلون بالأدلة النقلية، يستدلون كذلك بالأدلة العقلية، بل الدليل العقلي الصحيح الصريح لا يُخالف الدليل النقلية الصحيح.**

➤ **النقل مُقدم على العقل، لماذا؟**

لأن النقل صادر عن الوحي، أمَّا الأدلة العقلية فَيَعْتَرِها مَا يَعْتَرِها مِنَ النقص، ويعتريها مَا يَعْتَرِها مِنَ الوهم، ويعتريها مَا يَعْتَرِها مِنَ المُكابرة أحيانًا، ولهذا كان النقل هو الأصل وهو المقدم، والعقل هو التابع له.

➤ **هل يصح أن يُقال: إِنَّ الله على مَا يَشَاء قدير؟ أو يقال: إِنَّ الله على كل شيء قدير؟ هل قدرته متعلقة بما يَشَاء؟ أو هو قدير على مَا يَشَاء وما لا يَشَاء؟**

الجواب. إِنَّ الله على كُلِّ شيء قدير.

➤ **إِنَّ الله يَعْلَمُ كُلَّ شيء أزلًا وأبدًا، جملةً وتفصيلاً، يَعْلَمُ مَا يَتَعَلَّقُ بِأفعال العباد، يَعْلَمُ مَا يَشَاء، يَعْلَمُ مَا كَانَ في الماضي، وما يكون في الحاضر، وما يكون في المستقبل، وما لم يكن لو كان كيف يكون، يعلم المستحيل الذي لم يقع لو وقع كيف يَقَع، فلاحظ الكمال المطلق، ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا﴾ [الأنعام: ٢٨]، فلاحظ الكمال المطلق يعلم المستحيل الذي لم يقع لو وقع كيف يَقَع.**

➤ **وهكذا يُقال في قدرته: إِنَّ الله على كل شيء قدير لا يُعجزه شيء، لا مُكره له.**

الكل مُفْتَقِر إليه -تبارك وتعالى، ولهذا كَانَ مِنْ كَمَالِ العبودية أَنْ يُظَهَرَ العبد فَقْرَهُ إِلَى اللَّهِ، كما في دعاء الاستسقاء: "اللهم أَنْتَ الغني ونحن الفقراء" فَيُظَهَرُ العبد افتقاره إِلَى اللَّهِ وحاجته إِلَى اللَّهِ وتضرعه بين يدي اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، هذا من كَمَالِ عبودية العبد لربه -تبارك وتعالى.

هَلْ يَلْزَمُ مِنْ إثبات هذه الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ تشبيه الخالق بالمخلوق؟ الإجابة: لا، فأهل السنة يقولون: إِنَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ مع اعتقادهم بأنه ليس كمثله شيء. فأهل السنة يُثَبِّتُونَ النُّزُولَ وَيُثَبِّتُونَ الْمَجِيءَ، **فَهَلْ يَلْزَمُ مِنْ هَذَا تَشْبِيهِ الْخَالِقِ بِالْمَخْلُوقِ؟**

الإجابة: لا، **لِمَاذَا؟** لأن صفات الخالق تليق به -عَزَّ وَجَلَّ-، ولهذا أتى هنا بالدليل تأكيداً لما سبق؛ لأن إثبات هذه الصِّفَاتِ لا يَلْزَمُ منه تشبيه الخالق بالمخلوق، صفات الرب -تبارك وتعالى- تليق به، ذلك لأنَّه -عَزَّ وَجَلَّ- ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

اللَّهُ -تبارك وتعالى- أَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ فِي كِتَابِهِ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ الْعَظِيمَةِ؛ وَلِذَا فَيَنْبَغِي عَلَى قَارِئِ الْقُرْآنِ وَالْمُسْتَمِعِ لَهُ أَنْ يَتَدَبَّرَ هَذِهِ الْمَعَانِي الْعَظِيمَةَ، وَأَنْ يُكْثِرَ مِنَ الثَّنَاءِ عَلَى اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ.

بل لاحظوا الصَّلَاةَ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ الْفَرَائِضِ بَعْدَ التَّوْحِيدِ، كُلُّهَا ثَنَاءٌ عَلَى اللَّهِ، سورة "الفاتحة" أعظم سورة، وهي ركن من أركان الصلاة، كُلُّهَا ثَنَاءٌ عَلَى اللَّهِ.

اللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وَمِنَ الدُّعَاءِ كَثْرَةُ الثَّنَاءِ عَلَى اللَّهِ -تبارك وتعالى- بِهَذِهِ الْمَعَانِي الْعَظِيمَةِ، خَاصَّةً فِي هَذَا الْعَصْرِ الَّذِي كَثُرَتْ فِيهِ الشُّبُهَاتُ، وَكَثُرَتْ فِيهِ الْمَشَاغِلُ، وَلِهَذَا لَاحِظُوا أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ لَمَّا عَنُوا بِهَذَا الْبَابِ الْعَظِيمِ كَانَ ذَلِكَ -بِحَمْدِ اللَّهِ- مِنْ أَسْبَابِ ثَبَاتِهِمْ وَتَعْظِيمِهِمْ لِكَلَامِ اللَّهِ، وَتَعْظِيمِهِمْ لِكَلَامِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَتَعْظِيمِهِمْ لِأَوَامِرِ وَنَوَاهِي اللَّهِ -تبارك وتعالى-؛ لِأَنَّهُمْ عَظَّمُوا اللَّهَ -عَزَّ وَجَلَّ- بِمَا يَسْتَحِقُّ مِنْ أَسْمَاءٍ وَصِفَاتٍ، وَكَلِمَا ضَعُفَ هَذَا الْبَابُ كُلُّمَا تَسَاهَلَ وَتَهَاوَنَ النَّاسُ فِي الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، فَهَذَا الْجِيلُ يَحْتَاجُ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَى تَعْزِيزِ هَذِهِ الْمَعَانِي الْعَظِيمَةِ، مِنْ كَثْرَةِ الثَّنَاءِ عَلَى اللَّهِ -تبارك وتعالى- بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، كَمَا أَثْنَى اللَّهُ -تبارك وتعالى- عَلَى نَفْسِهِ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

الدرس السادس

- في كتب العقائد أنَّ أهل العلم يجعلون أبواب القدر ضمن أبواب الأسماء والصفات، وضمن توحيد الربوبية؛ لأنَّ الإيمان بقدر الله -عز وجل- إيمان بعلم الله -عز وجل- المطلق لكلِّ شيءٍ بما في ذلك أفعال العباد، وإيمان بكتابته -عز وجل- لجميع ما قدَّره في اللوح المحفوظ قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، كذلك إيمان بمشيئة الله النَّافذة لكلِّ شيءٍ بما في ذلك أفعال العباد، وإيمان بخلقه -عز وجل- لكلِّ شيءٍ بما في ذلك أفعال العباد.
- **مراتب الإيمان بالقدر: العلم والكتابة والمشيئة والخلق.** وهي متعلِّقة بالإيمان بالأسماء والصفات، وتتعلق بربوبية الرَّبِّ -تبارك وتعالى- ولهذا يتحدثون عن مسائل القدر ضمن مسائل الأسماء والصفات وضمن توحيد الربوبية، بل إنَّ الإمام أحمد -رحمه الله- لما سُئل مرَّة عن القدر، قال: القدر هو علم الله.
- إيمان العبد بعلم الله المطلق لكلِّ شيءٍ هو إيمان بقدر الله -تبارك وتعالى-.
- هناك تلازمٌ بين الخلق والعلم، فالخلق يستلزم العلم ولا بد.
- الأسماء والصفات بينها تلازمٌ في دلالتها، فالله -عز وجل- هو الخالق لهذا الخلق، وهذا الخلق الحكيم يلزم أن يكون خالقه يعلم كلَّ شيءٍ.
- قوله: **(خَلَقَ الْخَلْقَ بِعِلْمِهِ)** في هذا ردُّ على القدرية المعطلة الذين نفَّوا علم الله -عز وجل- بأفعال العباد، فالقدرية الأوائل نفَّوا جميع مراتب القدر الأربعة.
- غلاة القدرية، وهم أتباع معبد الجني وغيلان الدمشقي، وحكَّم السلف بكفرهم لإنكارهم علم الله -عز وجل- ولإنكارهم عموم مشيئة الله وخلقهم، وتكذيبهم للقرآن وللسنة التي جاءت بإثبات هذه المراتب.
- القدرية الثانية، أثبتوا علم الله بأفعال العباد، وأثبتوا الكتابة لها، ولكن زعموا أنَّ أفعال العباد تقع بغير مشيئة الله، وبغير خلق الله -عز وجل- لها، وهؤلاء هم القدرية الثانية ومنهم المعتزلة.
- الجهمية الأوائل يُنكرون هذه الصفات، ويُنكرون الأسماء، وجاءت المعتزلة أثبتت الأسماء ولكنها أنكرت الصفات.
- وردت عبارات عن بعض السلف ومنهم الشافعي أيضًا أنَّه قال: "ناظروا القدرية بالعلم، فإن أقرُّوا به خُصِّموا، وإن جحدوه كفروا".
- علمه -عز وجل- ليس كعلم البشر يعتره الخلل والنقص؛ بل له الكمال المطلق، يعلم الشيء الذي لم يقع لو وقع كيف يقع، فإذا كان الله يعلم ما أنت فاعله غداً، وله الكمال المطلق في كل شيء، فتكون الكتابة هنا مبنية على العلم والإحاطة، وليست على الجبر ابتداءً، فعلمه بما يقع لكامله، ثم كتابته مبنية على هذا العلم، ولا يلزم من كَوْن الشيء مكتوب أنَّ العبد مجبرٌ، فالله يعلم والعبد لا يعلم.
- الإيمان بالقدر هو إيمان بعلم الله، كذلك إيمان بقدرة الله الشاملة، وإيمان بمشيئة الله النَّافذة، ولهذا جاء عن الإمام أحمد -رحمه الله- أنَّه قال: **"القَدَرُ هو قُدْرَةُ اللَّهِ"**، فإذا شاء أمراً قال له كن فيكون.

التقدير أربعة أنواع كما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة.

❖ **النوع الأول: التقدير العام،** وهو الذي كان في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

❖ **النوع الثاني: التقدير العمري،** وهو الذي يكون بعد أن يبلغ الجنين مائة وعشرين يومًا.

❖ **النوع الثالث: التقدير السنوي،** وهذا الذي يكون في ليلة القدر.

❖ **النوع الرابع: التقدير اليومي،** كما دلّ عليه قوله -تبارك وتعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

➤ الأسباب من قضاء الله وقدره، وكونه وقع بسبب لا يخرج عن القضاء والقدر.

➤ **فهل صلة الرحم تزيد في العمر وتزيد في الرزق؟**

الأسباب هي من قدر الله، فالدعاء من قدر الله، وصلة الرحم كذلك، وهكذا جميع الأسباب التي يتخذها المسلم هي من أقدار الله، فكون هذا الشيء سبباً فهذا لا يخرج عن قدر الله -تبارك وتعالى-.

فنقول: نعم هي مُقدرةٌ والأسباب لها أثرها، وذلك بعلم الله -عز وجل- وبمشيئة الله -عز وجل- فكون صلة الرحم سبباً في زيادة العمر وفي سعة الرزق، فلا يخرج هذا السبب عن قدر الله -تبارك وتعالى-.

أهل العلم لهم أجوبة حول مفهوم هذا الحديث، منهم من قال: إنّ المراد بقوله «يُسَبِّطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَأَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ» هو: البركة التي تكون في المال، والبركة التي تكون في العمر، فصلة الرحم سبب لبركة الرزق، وكذلك لبركة العمر، وقالوا: إنّ العبرة ليس بطول الأعمار وإنما العبرة ببركتها.

➤ قال: (وَعَلِمَ مَا هُمْ عَامِلُونَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ)، هذه المقادير متى قَدِرَتْ؟

قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

➤ **هل يوجد تعارض وتناقض بين القدر وبين الشرع؟**

أبداً، فهذا فيه تنبيه على وجوب الإيمان بالشرع وامتنال الأمر واجتناب النهي مع الإيمان بالقضاء والقدر، ولا تعارض بينهما؛ لأنّ القدر مبنيٌّ على كمال الله المطلق، مبنيٌّ على علم الله المطلق، وعلى كتابته -عز وجل- وعلى عموم مشيئته وعموم خلقه، وهذا لا يتعارض مع شرعه.

➤ الجبريّة الذين زعموا أنّ العبد مجبر، من لوازم مذهبهم التي تدل على بطلانه، أنّ الشرع لا قيمة له عندهم، إذا كان الإنسان مجبر، **فما الفائدة إذن من إرسال الرسل؟! وإنزال الكتب والأوامر والنواهي؟!**

➤ الذين ضلوا في باب القدر طوائف، منهم: الجبريّة الغلاة الذين أثبتوا العلم والكتاب والمشيئة والخلق، ولكنهم نفوا المشيئة للعباد، فقالوا: إنّ العبد مجبر، وضدهم تماماً القدريّة الذين نفوا القدر وهم طوائف، ومنهم: المعتزلة الذين جعلوا العبد مستقلاً بمشيئته ومستقلاً بأفعاله، لا أثر لمشيئة الله ولا أثر لخلق الله في أفعال العباد.

➤ والسبب الذي أوقعهم في ضلالهم هذا هو: عدم التّفريق بين الإرادتين، الإرادة الكونيّة والإرادة الشرعيّة، فتجد أنّ الجبريّة غلبوا الإرادة الكونيّة، والقدريّة غلبوا الإرادة الشرعيّة، وأهل الحقّ جمعوا بين الإرادتين،

فكون النَّبيِّ مرادُّ الله كونهً وقدرًا لا يلزم منه المحبَّة والرِّضا، فالإرادة الكونيَّة لابدَّ أن تقع ولا يلزم منها المحبَّة والرِّضا، كالمعاصي والشُّرور فهي واقعة بقدر الله ولا يلزم منها المحبَّة والرِّضا.

➤ الإرادة الشرعيَّة المحبوبة لله فلا يلزم منها الوقوع، فأهل الحقِّ فرَّقوا بين الإرادتين، ولهذا فالقدر إرادة كونيَّة، والشرع إرادة شرعيَّة.

➤ قضاء الله نوعان:

❖ **قضاء كوني:** يلزم منه الوقوع.

❖ **قضاء شرعي:** يحبه الله لكن لا يلزم منه الوقوع،

➤ **فهل بين النوعين تعارض؟**

لا تعارض بينهما، فلذلك وقع الضَّلَال عند هؤلاء بسبب عدم التَّفريق بين الإرادتين، وبين القضاءين.

➤ **هل أفعال العباد تخرج عن قدر الله؟**

لا؛ لأنَّ كل شيء يجري بقدرته ومشيتته، ولهذا لما قالت القدريَّة: إِنَّ العبدَ مستقلٌّ بأفعاله، ومستقلٌّ بمشيئته، فهو يخلق أفعاله؛ وصفهم السَّلف بأنَّهم مجوسُ هذه الأمة.

➤ **لماذا وصفوهم بأنَّهم مجوس؟**

للتَّشابه بينهم وبين المجوس، فالمجوس وهم الثَّنويَّة يزعمون أنَّ للكون خالقين، النُّور خالق الخير، والظُّلَّة خالق الشر. بينما المعتزلة القدريَّة جعلوا كلَّ عبدٍ خالقٌ لأفعاله، بل المجوس عندهم للكون خالقين، والمعتزلة عندهم كل عبد يخلق أفعاله، ولهذا ردَّ عليهم السَّلف بالكتب التي سموها: "خلق أفعال العباد" فأفعال العباد من خلق الله -تبارك وتعالى. ولهذا قال: (وَكُلُّ شَيْءٍ يَجْرِي بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ).

➤ **هل يفهم من الإيمان بالقدر أنَّ العباد ليس لهم مشيئة؟**

لا.

➤ **ما الدَّليل على أنَّ العبد له مشيئة؟**

الدَّليل قوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

➤ **أهل السُّنة كما يستدلُّون بالشرع يستدلُّون بالعقل، فمن جهة العقل، هل العبد له مشيئة؟ أو مسلوب**

المشيئة كما زعمت الجبريَّة؟

من جهة العقل: الإنسان له مشيئة، والإنسان يُفرِّق بين الأشياء التي تقع بمشيئته، والتي تقع بغير مشيئته، وما يقع بغير مشيئته خارجٌ عن مناط التَّكليف، ولا يُلام عليه، وهذا يسمُّونه الإكراه المُلجئ، أمَّا ما وقع بمشيئته فيحاسب عليه؛ لأنَّه هو الذي اختار هذا الشَّيء، فالعبد له مشيئة من جهة الشرع ومن جهة العقل.

➤ **هل مشيئة العبد تخرج عن مشيئة الله؟**

أبدًا، لذلك لاحظوا الإشكال الذي وقع فيه القدريَّة والجبريَّة، فهم وقعوا بين طرفي نقيض.

الجبرية غلبت مشيئة الرب ونفت مشيئة العباد، وهذا غير صحيح شرعاً ولا عقلاً، وجاءت القدرية عكسهم، فغلبت مشيئة العبد وأخرجتها عن مشيئة الله، فجعلت هناك مَنْ يُصَرِّفُ الكون مع الله -تبارك وتعالى- فوقعت في الشُّرك الذي وقع فيه المجوس، وأهل الحق جمعوا بين المشيئتين.

➤ هل بين المشيئتين تناقض؟

أبدًا، ولهذا أهل الحق جمعوا بين المشيئتين كما جاء في نفس الآية.

➤ المعطلة في باب الصفات نظروا إلى الشُّطرِ الأوَّل في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فنفوا، ولم ينظروا إلى الصفات في قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

➤ أمَّا المشيئة والمجسمة نظروا للشُّطرِ الثَّاني، ففهموا من الإثبات: التَّمثيل والتَّشبيه والتَّجسيد. أمَّا أهل الحق فقد أثبتوا إثباتًا من غير تمثيل، ونزَّهوا تنزيهًا من غير تعطيل.

➤ في هذه الآية: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ جاءت القدرية فأخذت بالشُّطرِ الأوَّل، فغلبت مشيئة العبد وأنَّ العبد يشاء استقلالًا، وجاءت الجبرية فغلبت مشيئة الرب وألغت مشيئة العبد، وأهل الحق جمعوا بين المشيئتين.

➤ إذا حصلت لك النعم فتنسبها إلى مَنْ؟

إلى المنعم المتفضل، لا إلى نفسك وذكاك واجتهادك؛ لأنَّك ما شئت إلا مَّا شاء الله، وإلا قد يكون هناك مَنْ هو أذكى منك، ولكن ما تيسرت له الأمور التي تيسرت لك.

➤ هذه الآية، وهي قوله -تبارك وتعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فيها رد على الجبرية، أين الرد؟ إثبات المشيئة للعباد، وفيها رد على القدرية، في أنَّ مشيئة العباد تحت مشيئة الله -تبارك وتعالى.

➤ الجبرية فهم شبه بأهل الجاهلية، كما أنَّ المعتزلة القدرية فهم شبه بالمجوس.

➤ كلُّ مَنْ أمرته بالطاعة ونهيته عن المعصية فاحتجَّ عليك بالقدر فهذه عقيدة الجبرية.

➤ هل فعلاً هذه الشرور وقعت بمشيئة الله أو بغير مشيئة الله؟

وقعت بمشيئة الله.

➤ الذي يحتج بالقدر على المعاصي، يُرد عليه بالشَّرع، ويرد عليه كذلك بالعقل، بأنك أنت الذي فعلت، ويُرد عليه: **أنَّه في أموره الدنيوية هل يحتجُّ بالقدر؟** أبدًا، فنقول: لماذا في أمور الدنيا لا تحتجُّ بالقدر، وفي أمور الآخرة خاصة فيما يتعلق بالأوامر والنَّواهي تحتجُّ بالقدر؟

فاحتجاجك باطل، ثم احتجاجك بالقدر احتجاجٌ بما لا تعلم به؛

لأنَّ الإنسان لا يعلم بالقدر إلا بعد الوقوع، ثم الإنسان يحسن الظَّن ويأخذ بالأسباب، ويمتثل الأمر ويجتنب النَّهي، ويحسن الظَّن بربه -تبارك وتعالى.

➤ ما حكم البحث في مسائل القضاء والقدر؟

الجواب: البحث فيما دلَّ عليه الدَّلِيل لا بأس به، وهذا من الإيمان بالقدر، فلا يمكن لإنسان أن يؤمن به على جهة الإجمال والتَّفصيل إلا بمعرفة هذه المسائل، أمَّا فيما لا يدلُّ عليه الدَّلِيل، فهذا الذي فيه النَّهي.

وصلَّى الله على نبيِّنا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

الدرس السابع

➤ قال الإمام الطحاوي -رحمه الله- في بيان مُعتقد أهل السُنَّة والجماعة في صفات الله -تَبَارَكَ وتَعَالَى- وإيمان أهل السُنَّة بقضاء الله وقدره: أَنَّ الله -سبحانه وتعالى- (يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَيَعْصِمُ وَيُعَافِي فَضْلاً)، والمعنى: أَنَّ الله -سبحانه وتعالى- يُوفِّق لسبل الخير والطاعات، والأعمال الصالحات، ويعصم كذلك من الوقوع في الزلات والخطيئات والسيئات، ويُعافي -عزَّ وجلَّ- المُعَافاة العامَّة والمُعَافاة الخاصَّة -معافاة الأبدان ومعافاة القلوب- مَنْ يَشَاءُ من عباده فضلاً منه -عزَّ وجلَّ- ورحمة، كل ذلك بفضل الله -عزَّ وجلَّ-.

ولهذا مَنْ هُدي إلى الصِّراط المستقيم، ومن أُعِينَ ووُفِّقَ وسُدِّدَ إلى الصِّراط المستقيم وسلوك طريق الحقِّ، فإنَّما ذلك بفضل الله -تَبَارَكَ وتَعَالَى- ومِنِّته على عباده.

➤ فالهَدَاية والتَّوْفِيق للعمل الصَّالح والتَّسديد؛ كل ذلك فضل من الله -تَبَارَكَ وتَعَالَى- وهذا هو مُراد المصنِّف -رحمه الله- بقوله: (يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيَعْصِمُ وَيُعَافِي مَنْ يَشَاءُ فَضْلاً) أي: تَكْرماً منه -تَبَارَكَ وتَعَالَى- وتفضلاً منه -سبحانه وتعالى- ومِنَّةً منه -سبحانه وتعالى- ليس لأحدٍ عليه مِنَّةٌ، ولهذا نقول مَنْ أكرمه الله بالهَدَاية للإسلام، وأكرمه بالهَدَاية فاستقام على الصِّراط المستقيم، وأكرمه فثبَّتته على الإيمان ولزوم العمل الصَّالح؛ اعلم أَنَّ ذلك فضلٌ من الله -تَبَارَكَ وتَعَالَى- ومِنَّةً منه -تَبَارَكَ وتَعَالَى- ليس لأحد مِنَّةٌ، فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

➤ الهَدَاية نوعان:

❖ النوع الأول: هداية الدَّلالة والإرشاد والبيان. وهي التي أثبتَّها الله -عزَّ وجلَّ- لنبيِّه في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، يعني: تدلُّ وتُرشد وتُبيِّن.

❖ النوع الثاني: هداية التَّوْفِيق للعمل الصَّالح، وهذه التي نَفَّاهَا الله -عزَّ وجلَّ- عَن نبيِّه، في قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، وهذه الهَدَاية هي المرادة من قول المصنِّف: (يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ): أي: يُوفِّق مَنْ يَشَاءُ إلى الصِّراط المستقيم.

أمَّا هداية التَّوْفِيق فهي التي أنكرتها المعتزلة، فالمعتزلة أثبتت هداية البيان والإرشاد وأنكرت هداية التَّوْفِيق للعمل الصَّالح.

➤ المعتزلة القدرية يُخرجون أفعال العباد عن مشيئة الله -تَبَارَكَ وتَعَالَى- بل يُنكرون هداية التَّوْفِيق من الله -تَبَارَكَ وتَعَالَى- وهذا مبنيٌّ على أصلهم الفاسد الذي يزعمون فيه وجوب فعل الأصلح للعبد على الله -تَبَارَكَ وتَعَالَى- والتي يعنون بها مسألة الهَدَاية والتَّوْفِيق، فيوجبون على الربِّ -تَبَارَكَ وتَعَالَى- فعل الأصلح، ويُردُّ عليهم بما سبق من الأدلَّة التي فيها بيان أَنَّ الهَدَاية بيد الله -عزَّ وجلَّ- قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ فالأدلَّة السابقة فيها ردُّ على المعتزلة.

➤ الأنداد: جمع نِدٍّ، والنِّدُّ هو المثلُّ والشَّبيهُ والنَّظيرُ والكفءُ والسَّيِّئُ، فتعالى الله -سبحانه وتعالى- وتنزه وتقدس وترقّع عن الأضداد والأنداد، لكماله -عزَّ وجلَّ؛ ولأنَّه متعالٍ، والعلو -كما تقدم- يشمل علو الدَّات وعلو القدر وعلو القهر.

➤ قضاء الله على نوعين:

(١) القضاء الكوني القدي.

(٢) القضاء الشرعي.

✓ فالقضاء الكوني لأبدٍ من وقوعه، ولا يلزم منه المحبَّة والرِّضا ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَآوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢].

✓ والقضاء الشرعي الذي يرادف المحبَّة ﴿وَقَضَىٰ رَبِّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]. فلا رادَّ لقضائه -سبحانه وتعالى.

➤ قوله: (وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ)، وأيضا الحكم نوعان:

(١) الحكم الكوني القدي.

(٢) الحكم الشرعي.

فالربُّ -تَبَارَكَ وتَعَالَى- لا أحد يَتَعَقَّب أحكامه الكونيَّة، وكذلك لا أحد يَتَعَقَّب أحكامه الشرعيَّة.

➤ قال: (وَلَا غَالِبَ لِأَمْرِهِ)، الأمر يشمل:

(١) الأمر الكوني.

(٢) الأمر الشرعي.

فالله تعالى لا غالب لأمره، وهذا أيضا فيه ردُّ على المعتزلة، فأمره -عزَّ وجلَّ- نافذٌ، فما شاء كان وما لم يشاء لم يكن، فلا رادَّ لقضائه ولا معقِّب لحكمه ولا غالب لأمره -تَبَارَكَ وتَعَالَى- فله الحُكْم كُلُّه، وله الأمر كله، لا أحد يتعقَّب على الربِّ -تَبَارَكَ وتَعَالَى- في أقداره، ولا أحد يتعقَّب على الربِّ -تَبَارَكَ وتَعَالَى- في أحكامه، ولا غالب لأمره -تَبَارَكَ وتَعَالَى.

➤ إذا أراد عطاءً فلا أحد يُمانع عطاؤه -تَبَارَكَ وتَعَالَى- وإذا أراد منع شيءٍ، فلا أحد يستطيع أن يُعارض الربِّ -تَبَارَكَ وتَعَالَى- ولهذا يُقال في الثناء على الله: «لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيٍّ لِمَا مَنَعْتَ»^٣ سبحانه وتعالى.

➤ هل يوجد تعارض بين الشرع والقدر؟

معاذ الله، فنحن نؤمن بمشيئته، ونؤمن بمشيئة العباد، وأنَّ مشيئة العباد تحت مشيئة الله، ونؤمن بقدر الله السَّابق، ونؤمن كذلك بشرعه، ولا تعارض بين ذلك، فكل ما سبق ويدخل فيه ما قرَّره في باب الهداية والإضلال.

➤ اليقين هو أعلى درجات الإدراك، واليقين في نفسه درجات:

❖ علم اليقين.

❖ عين اليقين.

^٣ صحيح البخاري (١٥٧٥٧).

❖ **حق اليقين**، ولهذا قال: (أَمَّا بِذَلِكَ كُلِّهِ وَأَيَقَنَّا) بحيث لا يتطرق الشكُّ بوجه من الوجوه، فأما بكل ما تقدم.

➤ **لماذا جعل باب القدر مع أنه هو الركن السادس من أركان الإيمان ضمن مباحث الأسماء والصفات؟**

للتلازم بين مسألة توحيد الأسماء والصفات والقدر، ويتعلّق كذلك بالإيمان بربوبية الله -عزَّ وجلَّ- وقضائه الكونيِّ وأمره الكونيِّ، ويتعلّق بمشيئته النافذة -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- ويتعلّق بالكتابة، ويتعلّق بالخلق، فمسائله تتعلّق بمسائل الأسماء والصفات ومسائل الربوبية، وأيضًا لأهمية موضوع القدر.

➤ قال: (نَقُولُ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ) وهذا يدلُّك على أنَّ كلَّ المسائل التي ذكرت وما سيذكره تدخل في مفهوم التَّوحيد بأنواعه الثلاثة:

(١) توحيد الربوبية.

(٢) توحيد الإلهية.

(٣) توحيد الأسماء والصفات.

وتلاحظون التَّلازم بين هذه المسائل، فالإيمان بالقضاء والقدر يدخل ضمن مباحث التوحيد -مباحث الربوبية والأسماء والصفات- وأيضًا في مباحث توحيد الإلهية، فالإيمان بالقدر لا يُعارض الشرع الذي هو توحيد العبادة.

➤ قال: (نَقُولُ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ مُعْتَقِدِينَ) اعتقاد جازم (بِتَوْفِيقِ اللَّهِ) وهذا أيضًا فيه تأكيد لما ذكرنا أنَّ الهداية والعصمة والمعاونة بتوفيق الله -عزَّ وجلَّ-، فالموفق مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ، والمهتدي مَنْ هَدَاهُ اللهُ، فَمَنْ يَهْدِي اللهُ فلا مضلَّ له، ومن يضلُّ فلا هادي له، فابتدأ هذا المعتقد بهذه العبارة التي تُبَيِّنُ مَا يَعْتَقِدُهُ أَهْلُ السُّنَّةِ والجماعة، وفيها أنَّه واجب على كلِّ مسلمٍ أن يُعَلِّقَ رجاءه بالله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- وأن يَطْلُبَ منه الهداية والتَّوفيق.

➤ **إذا كانت الأمور قد كُتبت والأمر قد انتهى، ففيمَ العمل؟ فكيف يُجاب عن هذه الشبهة؟**

أجاب عنها الرسول صلى الله عليه وسلم، بقوله: «اعْمَلُوا، فَكُلُّ مَيْسَرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ»^٤.

ولذلك نقول لمن تشكل عليه هذه المسائل: لا تلتفت لهذا المكتوب، وإنَّما مَا أَنْتَ مُطَالِبٌ أَنْ تَشْغَلَ نَفْسُكَ بِهِ هو العمل، كما قال صلى الله عليه وسلم: «فَكُلُّ مَيْسَرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ» أمَّا كون الربِّ عَلِمَ مَا هُمْ عَامِلُونَ قبل أن يَخْلُقَهُمْ، فهذا مِنْ كَمَالِهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- فلا تُشْغَلُ نَفْسُكَ بالبحث فيما هو مكتوب باللُّوح المحفوظ، وإنَّما الذي يجب عليك أيها العبد هو أن تشغل نفسك وتصرف همتك إلى العمل، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «اعْمَلُوا فَكُلُّ مَيْسَرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ».

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ٥ - ١٠] فالذي يهمل أيها العبد هو العمل، وما هو مكتوب هذا بناءً على علم الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-.

^٤ صحيح البخاري (٤٩٤٩).

➤ هل علمه قاصر بما هم عاملون أو بما لم يعملوا؟

الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ، كما أَنَّهُ هو القادر على كُلِّ شَيْءٍ، قادر على ما يشاء وما لا يشاء، فهو على كُلِّ شَيْءٍ قدير.

ولهذا كان الإيمان بالعلم المطلق وبالقدرة المطلقة مزيلا لإشكالات كثيرة تَرُدُّ على النَّاسِ في هذا الباب، وقد وردت بعض الفِرَقِ كالمعتزلة، فوقعوا في هذا التَّنَاقُضِ العظيم في تَنْقُصِ الرَّبِّ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- واعتقاد وجود الأضداد والأنداد له -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-.

فلو حققوا الإيمان بصفات الربِّ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- على هذا الوجه -العلم المطلق والخلق الكامل- لَمَا وَرَدَ عليهم هذا الإشكال.

➤ لماذا جاء بعبارة (وَعَلِمَ مَا هُمْ عَامِلُونَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ)؟

هذا العلم السَّابِقُ، ثم قال: (وَأَمَرَهُمْ بِطَاعَتِهِ، وَنَهَاَهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ). لماذا أتى بهذه العبارة بعد تلك العبارة؟ للزِّدِّ على أَنَّهُ لا يوجد تعارض بين القدر والشرع، فَعَلِمَ مَا هُمْ عَامِلُونَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ ومع ذلك أمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته، فلا تناقض ولا تعارض، ولكن لو وجد ما يُوهِمُ التَّعَارُضَ فيكون في فهم العبد وليس في قَدَرِ الرَّبِّ وشرعه -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-.

ولهذا قال: (وَأَمَرَهُمْ بِطَاعَتِهِ، وَنَهَاَهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ) الأمر بالطاعة والنهي عن المعصية لا يخرج ذلك عن قدر الله، فلا تعارض بين القدر والشرع.

➤ مُرادُه بقوله: (أَمَّا بِذَلِكَ كُلِّهِ) يعود إلى أي شيء؟

مِنْ أَوَّلِ مَا ذَكَرَ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ وما سيأتي، ولاحظ لما قرأنا السِّياق بأكمله اتَّضَحَ أَنَّ الْمُرَادَ هُوَ مَا ذَكَرَهُ مِنْ أَوَّلِ الْكِتَابِ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ، أو يقال: ما قرَّره في المواضع الأخيرة من الإيمان والهداية والضلال والقدر والشرع.

➤ (أَمَّا بِذَلِكَ كُلِّهِ) الضمير في "أما" يعود إلى مَنْ؟

هو يحكي عن عقيدة أهل السُّنَّةِ والجماعة، أي: أَنَّ عَقِيدَةَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَعَقِيدَةُ فَهَاءِ الْمِلَّةِ هِيَ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِكُلِّ مَا سَبَقَ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَالتَّوْحِيدِ وَالْقَدَرِ وَالشَّرْعِ.

➤ (وَأَيُّقِنَا) هذا الإيمان لا شكَّ فيه بأيِّ وجهٍ من الوجوه، هل المؤمن يحتاج إلى مزيدٍ إيمانٍ؟ نعم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ﴾ [النساء: ١٣٦]، ولهذا نقول في مثل هذه المسائل: إِنَّكَ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ تَحْتَاجُ إِلَى مُزِيدٍ إِيمَانٍ، ولهذا جِلَقَ الْعِلْمِ وَدُرُوسَ الْعِلْمِ تَزِيدُ فِي الْإِيمَانِ، والمذاكرة وتدبر القرآن تزيد في الإيمان.

➤ هل المهتدي يحتاج مزيد هداية؟

نعم، ألا ترى المسلم وهو في الصَّلَاةِ يقول في كل ركعة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، أي: دُلَّنَا وأرشدنا ووفقنا وثبتنا، فأنت تسأل الله -عَزَّ وَجَلَّ- التَّوْفِيقَ وَالْإِعَانَةَ وَالتَّسْدِيدَ.

➤ ولهذا قال: (أَمَّا بِذَلِكَ كُلِّهِ) هذا يدلُّك على أَنَّ الْإِيمَانَ دَرَجَاتٌ، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾،

وقال: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]، ولذلك الإيمان فيه:

- ❖ أصل الإيمان.
- ❖ فيه كماله الواجب.
- ❖ فيه كماله المستحب.
- ✓ فأصل الإيمان: الذي مع كل مسلم.
- ✓ والكمال الواجب: مع كل مؤمن.
- ✓ والكمال المستحب: الذي مع كل محسن، فالمسلم يحتاج إلى مزيد إيمان، ومزيد يقين.

الدرس الثامن

◀ ما علاقة هذا الجزء في العقيدة الطحاوية بما قبله؟

ذكر المصنّف -رحمه الله- فيما سبق مُعتقد أهل السُنَّة والجماعة في توحيد الله -تبارك وتعالى- وأسمائه وصفاته والإيمان بقضائه وقدره، ثم قال هنا: (وَأَنَّ) والواو هنا عطفٌ على مَا سَبَقَ -على مقول القول- فيكون المعنى: أي: نَقُولُ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ -مُعْتَقِدِينَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ: إِنَّ مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ. فيكون هذا الجزء مَعطوفًا على ما سبق.

وهذا الترتيب جاء به لتحقيق معنى الشهادتين، فما تقدم هو تحقيق معنى شهادة أن لا إله إلا الله، ويتحقق ذلك بالإخلاص لله -تبارك وتعالى- والإيمان بأسمائه وصفاته، والإيمان بربوبيّته، والإيمان بألوهيّته. ثم الجزء الثَّاني من تحقيق الشهادتين، وهو: شهادة أنَّ محمدًا رسول الله، فالإيمان بالنبي -عليه الصَّلَاة والسَّلَام- هو من الإيمان بالله، فيكون هذا الجزء من العقيدة الطحاوية في بيان ما يتضمَّنه الإيمان بشهادة أنَّ محمدًا رسول الله. ومعلوم أنَّ الشهادتين هما الرُّكن الأوَّل من أركان الإسلام.

◀ لماذا جُعِلتا ركنًا واحدًا مع أنَّ المشهود به متعدّد؟

لأنَّ من لوازم "لا إله إلا الله" اتِّباع النَّبي صلى الله عليه وسلم، ومن لوازم "لا إله إلا الله" عبادته بما شرع، هذا وجه، وأيضًا تحقيق شهادة "أن لا إله إلا الله" هو تحقيق للإخلاص، وتحقيق شهادة "أنَّ محمدًا رسول الله" هو تحقيق للمتابعة، ومعلوم أنَّ العبادة لا تُقبل إلا بهذين الشَّرتين: الإخلاص والمتابعة. ثم إنَّ من لوازم الإيمان بالله -عزَّ وجلَّ: الإيمان برسالة محمد -عليه الصَّلَاة والسَّلَام؛ لأنَّه هو المُبلِّغ عن ربِّه -تبارك وتعالى- ولهذا وجب الإيمان بالنبوَّة والرِّسالة، والتَّصديق فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يُعبد الله إلا بما شرع؛ هذا من لوازم الإيمان بالله -تبارك وتعالى- فلاجل التَّلَازم بين الشَّهادتين جُعِلتا ركنًا واحدًا، وهو الرُّكن الأوَّل من أركان الإسلام.

◀ والإيمان بشهادة "أنَّ محمدًا رسول الله" صلى الله عليه وسلم يتضمَّن أمورًا كثيرة، منها:

(١) الإيمان باسمه -عليه الصَّلَاة والسَّلَام.

(٢) الإيمان بما نُبِّى وأُرْسِلَ به.

(٣) الإيمان بخصائصه وتصديقه في كل ما أخبر به عن الله -عزَّ وجلَّ- أو عن اليوم الآخر أو عن أَسْوَاط الساعة.

(٤) امتثال ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، واتِّباع هديهِ -عليه الصَّلَاة والسَّلَام.

(٥) وأن لا يُعبد الله إلا بما شرعه -عليه الصَّلَاة والسَّلَام.

٦) أيضًا الإيمان بالنبي -عليه الصلاة والسلام- يُسأل عنه الميت في القبر، فالميت في قبره يُسأل عن ربه وعن دينه وعن نبيه؛ ولذلك جعل المصنّف -رحمه الله- ما يتعلّق بالإيمان بالرسول -عليه الصلاة والسلام- بعد تحقيق الإيمان بالله -تبارك وتعالى.

➤ كم مرة ورد اسم محمد في القرآن الكريم؟

في أربعة مواضع:

❑ **الموضع الأول:** في سورة "آل عمران" في قوله -عز وجل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

❑ **الموضع الثاني:** في سورة "الأحزاب" في قوله -عز وجل: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

❑ **الموضع الثالث:** في سورة "محمد" والتي تسمى بسورة القتال، في قوله -عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢].

❑ **الموضع الرابع:** في آخر سورة "الفتح" في قوله -عز وجل: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

➤ وسمي بـ "محمد" لكثرة محامده، ولكثرة حامديه. وكذلك سُمي بـ "أحمد" لكثرة محامده -عليه الصلاة والسلام- وأيضًا لكثرة حامديه، ولهذا قرّن اسمه في الأذان، والشهادة له بعد الشهادة لله -تبارك وتعالى- ورفع الله -عز وجل- ذكره، فيُصلّى عليه، ولهذا هو محمد -عليه الصلاة والسلام- لكثرة محامده وخصائصه التي خصها الله بها، وكذلك لكثرة حامديه من أتباعه -عليه الصلاة وأتم السلام.

➤ أسماءه -عليه الصلاة والسلام- أعلامٌ وأوصاف؛ لأنّها تدلُّ على المعاني والصفات والخصائص التي خُصَّ بها النبي -عليه الصلاة والسلام.

➤ تعتبر ليلة الإسراء والمعراج بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم هي أشرف ليلة، فبِم وصفه الله -عز وجل- في هذه الليلة العظيمة الشريفة؟

✓ قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ [الإسراء: ١] فوصفه الله بالعبودية في مقام التّشريف.

✓ أيضًا في مقام الوحي، فيقول -تبارك وتعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] وهو مقام شريف، وقال -تبارك وتعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

✓ أيضًا في مقام التّحدي والإعجاز لهذا القرآن، يقول -عز وجل- متحدّيًا المشركين: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

✓ وفي مقام الدَّعوة يقول -عزَّ وجلَّ- في وصف نبيه في سورة "الجن": ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي فيها وصف النَّبي -عليه الصَّلَاة والسَّلَام- بأنَّه عبدُ الله.

◀ ولَمَّا قيل له في شِدَّة اجتهاده وكثرة عبادته وقيامه لليل: قد غَفَرَ الله لك مَا تَقَدَّمَ من ذنبك وما تَأَخَّرَ، فقال: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»^٥ فاعترف بأنَّه عبد لله -تبارك وتعالى.

◀ وفي قصَّة حديث الشَّفاعَة، أَنَّ النَّاسَ يَأْتُونَ أُولَى الْعِزْمِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ يَطْلُبُونَ الشَّفَاعَةَ فَيَعْتَذِرُونَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، وَيَأْتُونَ نُوحًا، وَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، وَيَأْتُونَ مُوسَى؛ فَيَعْتَذِرُونَ كُلِّهِمْ، فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُ: «اأْتُوا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَبْدًا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ»^٦ وهذا مقام تشریف، فوصف عيسى -عليه السَّلَام- محمدًا صلى الله عليه وسلم بهذا الوصف، فقال: «عَبْدًا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ».

◀ العبادَة والعبوديَّة أشرف وصف للإنسان، لماذا؟

لأنَّ العبوديَّة هي الغاية التي مِنْ أَجْلِهَا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ، وَمِنْ أَجْلِهَا أَرْسَلَ الرُّسُلَ، وَمِنْ أَجْلِهَا أَنْزَلَ الْكُتُبَ، فقال -عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ولهذا وصف الله ملائكته بهذا الوصف: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦].

◀ فالعبوديَّة أشرف وصف للإنسان، ولهذا وُصف النَّبي -عليه الصَّلَاة والسَّلَام- بهذا الوصف العظيم؛ لأنَّه حَقَّقَ مقام العبوديَّة على جِهَة الكمال والتَّمام، فهو عبدُ الله -تبارك وتعالى.

◀ وفي وصفه بالعبوديَّة رُدُّ على الغلاة في النَّبي -عليه الصَّلَاة والسَّلَام- الذين يرفعونه عن مقام النُّبوَّة والرِّسالة ومقام العبوديَّة إلى مقام الألوهيَّة أو مقام الرُّبوبيَّة، فهو عبدٌ لا يُعبد، ولهذا يوصف بهذا الوصف لمنزلته - عليه الصَّلَاة والسَّلَام- التي تليق به، فهو حَقَّقَ أعلى مقامات العبوديَّة، فلا يُرفع عن هذا المقام إلى مقام الألوهيَّة فيُعبد من دون الله أو مع الله، أو يُرفع عن مقام العبوديَّة أيضًا إلى مقام الرُّبوبيَّة، فيُعتقد فيه أنَّه يُصَرِّفُ الْكَوْنَ أو يغفر الذُّنُوبَ، أو يكشف الكُّرُوبَ، فهو -عليه الصَّلَاة والسَّلَام- عبد لا يُعبد من دون الله، وهو رسول لا يُكذَّب.

◀ فقولنا: "عبد"، رُدُّ على الغلاة الذين يغفلون فيه -عليه الصَّلَاة والسَّلَام- ولهذا قال -عليه الصَّلَاة والسَّلَام: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَبَ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»^٧، فهو عبد لا يُعبد من دون الله.

^٥ صحيح البخاري (٦٤٧١)

^٦ صحيح البخاري (٧٤٤٠) من حديث أنس بن مالك

^٧ صحيح البخاري (٣٢١٣).

وهكذا يقول المسلمون في عيسى عليه السلام: "ونشهد أنَّ عيسى عبد الله ورسوله"، فهو عبدٌ لا يُعبد، ورسول لا يُكذَّب، فكونه عبد هذا ردُّ على الغلاة.

➤ **وَمَنْ الَّذِينَ غَلَوْا فِي عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَام؟**

➤ النَّصَارَى.

وكونه أي: عيسى عليه السلام رسولاً فيه ردُّ على الجفافة، وهم اليهود الذين كذبوه واتَّهموه واتَّهموا أمَّه، فالمسلمون يعتقدون في عيسى أنَّه عبدٌ لله، ورسولٌ لا يُكذَّب، وهكذا يعتقدون في محمد -عليه الصَّلَاة والسَّلَام- أنَّه عبدٌ لله قد حَقَّق مقام العبوديَّة، فلا يُعبد من دون الله، وهو رسولٌ لا يُكذَّب.

ففي هذا ردُّ على الغلاة والجفافة، وأهل الحق -كما تقدم- وسط بين الغالي والجافي، ففي باب الصِّفَات وسط بين المعطَّلة والممَّثلة، وفي باب القدر وسط بين الجبريَّة والقدريَّة، وفي مقام النُّبُوَّة وسط بين الغلاة في النَّبِيِّ -عليه الصَّلَاة والسَّلَام- وبين الجفافة، فينزله منزلة اللائقة به -عليه الصَّلَاة والسَّلَام- فهو عبد الله ورسوله.

➤ فمن جهة الوقوع: العبوديَّة أولاً، ثم النُّبُوَّة، ثم الرِّسالة، فوصف العبوديَّة وصفٌ ملازم له صلى الله عليه وسلم، فهو قد حَقَّق أعلى مقامات العبوديَّة لله -تبارك وتعالى.

ثم من الله عليه بالنُّبُوَّة. والنُّبُوَّة: من النَّبَأ وهي الإعلام والإخبار، فنَبَّأه الله بالنُّبُوَّة، ونَبَّئ -عليه الصَّلَاة والسَّلَام- بـ ﴿أَفْرَأُ﴾ [العلق: ١].

ثم بعد النُّبُوَّة جاءت الرِّسالة، وهي البعث والتَّبليغ، فجاء بها على هذا التَّرتيب: العبوديَّة، ثم النُّبُوَّة، ثم الرِّسالة.

أيضاً من جهة الأفضليَّة: العبوديَّة عامَّة، ثم أخصُّ منها النُّبُوَّة، ثم أخصُّ منها الرِّسالة، ولهذا الرُّسل أخص من الأنبياء، والأنبياء أعم.

➤ وفي قوله: (وَنَبِيُّهُ الْمُجْتَبَى، وَرَسُولُهُ الْمُرْتَضَى) يشير إلى التَّفريق بين النُّبُوَّة والرِّسالة، وبين النَّبِيِّ والرَّسُولِ، وهذا هو الصَّحِيحُ من أقوال أهل العلم، أنَّه يوجد فرق بين النَّبِيِّ والرَّسُولِ.

ومن الفروق: أنَّ النَّبِيَّ مَنْ نُبِّيَ بِشَرِّعٍ سَابِقٍ، فهو يُجَدِّد شريعةً سابقة، ويُرسَل إلى قومٍ موافقين. وأمَّا الرَّسُولُ فَإِنَّهُ يُنَبِّأ بِشَرِّعٍ جَدِيدٍ وَدِينٍ جَدِيدٍ، وينزل عليه كتابٌ جديدٌ، ويكون في الغالب مُرسَلٌ إلى قومٍ مخالفين.

➤ بالمعنى الدقيق: **هل النَّبِيُّ مُرْسَلٌ؟**

نعم هو مُرْسَل، ولكن مُرْسَلٌ إلى قومٍ مخالفين، ومرسل بشريعة سابقة، إلا أنَّ الرسول أخص؛ لأنَّه ينزل عليه كتاب ويأتي بشريعة جديدة، فبناءً على هذا التَّعريف تكون النُّبُوَّة أعم والرِّسالة أخص، ولهذا يقال: كل رسول نبي، وليس كل نبي رسول، ولهذا قال لك: (وَنَبِيُّهُ الْمُجْتَبَى) فأتى بالنُّبُوَّة لأنَّها أعم، ثم قال: (وَرَسُولُهُ الْمُرْتَضَى) فتكون الرُّسل أخص من الأنبياء.

✓ والأنبياء مراتب في الفضل، ولهذا قال -عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥].

✓ والرُّسل أيضاً مراتب في الفضل كما قال -عزَّ وجلَّ: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة:

٢٥٣]، والرُّسل أفضل من الأنبياء، وأفضلهم أولو العزم، وهم خمسة: الخليلان وكليم الرحمن، ونوح، وعيسى.

✓ وأفضل الخمسة ثلاثة: الخليلان وكليم الرحمن.

✓ وأفضل الثلاثة اثنان: الخليلان.

✓ وأفضل الاثنين: خاتمهم محمد - صلى الله عليه وسلم.

➤ قال في خصائص النبي - عليه الصلاة والسلام: (وَأَنَّهُ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ) أي: أَنَّ الله - عزَّ وجلَّ - خصَّه بهذه الخصائص، والنبي صلى الله عليه وسلم له خصائص عديدة، منها: أَنَّ الله ختم به الأنبياء، كما دلَّ عليه قول الله - تبارك وتعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾.

➤ وعلى هذا فكلُّ دعوة نبوَّة بعده - عليه الصلاة والسلام - فهي باطلة، وكل من ادعى النبوَّة بعده - عليه الصلاة والسلام، فدعواه باطلة، لقوله - عزَّ وجلَّ: ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ فلا نبي بعده، وقد أخبر - عليه الصلاة والسلام - بأنَّه سيَدِّي النبوَّة بعده كذابون ثلاثون^٨، وقد ادَّعاها كثير من المعتوهين، وهذه الدعاوى تقع في كل زمان، وتقع في كل مكان من بعد النبي - عليه الصلاة والسلام - وغالبًا تحصل من أناس معتوهين، وممَّا يدلُّ على كذبهم ما جاء في كتاب الله - تبارك وتعالى - وفي سنة النبي - عليه الصلاة والسلام.

➤ لماذا عبر المصنِّف - رحمه الله - بهذه العبارة فقال: (خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ) ولم يقل خاتم المرسلين؟ وهذا مبني على التفريق السابق.

إِنَّ كُلَّ رَسُولٍ نَبِيٍّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولًا، فبناءً على ذلك لو قال: إِنَّهُ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، فيدخل في الرُّسل، يعني: إذا ختم الأعم، فيختم الأخص.

➤ والأتقياء: جمع تقي، وهو مَنْ امتثل أمر الله واجتنب نهيه، فهو - عليه الصلاة والسلام - إمام الأتقياء؛ لأنَّه حَقَّق صفات المتقين.

وتأمَّلوا في صفات المتقين في كتاب الله تعالى، فالنبي - عليه الصلاة والسلام - قد حَقَّق هذه الصفات في أعلى مقاماتها، كما أنَّه حَقَّق العبوديَّة في أعلى مقاماتها، فهو أخشى النَّاسِ، وأتقى النَّاسِ، وأعلم النَّاسِ بالله - تبارك وتعالى - كما قال - عليه الصلاة والسلام.

➤ ما أوَّل وصفٍ للأتقياء في كتاب الله؟

في أول سورة "البقرة" ﴿الْم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ١-٣]، النبي - عليه الصلاة والسلام - حَقَّق هذا الوصف في أعلى مقاماته.

ولهذا لما سُئِلَتْ عائِشَةُ رضي الله عنها عن خُلُقِ النبي - عليه الصلاة والسلام - قالت: "كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ"^٩ فهو القدوة - عليه الصلاة والسلام - وهو الأُسوة لجميع الأتقياء، فهو إمام الأتقياء عمومًا.

➤ هل يجوز للمسلم أن يدعو الله أن يجعله للمتقين إمامًا؟

^٨ أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُبْعَثَ دَجَالُونَ كَذَّابُونَ، قَرِيبٌ مِنْ ثَلَاثِينَ، كُلُّ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ".

^٩ مسند الإمام أحمد، عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: أَتَيْتُ عَائِشَةَ فَقُلْتُ: يَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ، أَخْبِرِيْنِي بِخُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ: "كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ".

يجوز للمسلم أن يدعو الله أن يجعله الله للمتقين إمامًا، أي: قدوة وأسوة، فيتَّصف بصفات الأتقياء ويكون قدوة لمن بعده في هذه الصفات التي جاءت في كتاب الله -عزَّ وجلَّ- والتي يحبها الله، فالله يحب المتقين، والله مع المتقين: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

فله أن يدعو الله -عزَّ وجلَّ- أن يجعله للمتقين إمامًا، كما أثنى الله -عزَّ وجلَّ- على عباد الرحمن، وأنهم دعوا الله -عزَّ وجلَّ- بقولهم: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

بِمَ تُنال الإمامة في الدين؟

بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين، الصبر بجميع أنواعه، صبرٌ على طاعة الله، صبرٌ عن معاصي الله، وصبرٌ على أقدار الله، فيُحقِّق هذا المقام العظيم وهذه العبودية التي يكون الجزاء عليها بغير حساب ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] ويُحقِّق اليقين.

فهذين الوصفين تكون الإمامة في الدين، ولهذا وُصف النَّبي صلى الله عليه وسلم بأنَّه هو الإمام وهو القدوة: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، أي: في أوصافه، في هديه، في معاملاته، فهو إمام الأتقياء، لتحقيقه جميع صفات الأتقياء، فكان أسوة للمتقين.

هذه العبارة التي فيها وصف النَّبي -عليه الصَّلَاة والسلام- بأنَّه حبيب رب العالمين، انتُقِدَ المؤلف فيها. لماذا انتُقِدَ؟

لأن هذا الوصف عام، فالله يحب الرُّسل ويحب الأنبياء، ويحب الصالحين، ويحب الأتقياء، فليس هناك ميزة يختص به النَّبي صلى الله عليه وسلم، ولهذا قالوا: لو أنَّ المُصَنِّف -رحمه الله- قال "وخليل رب العالمين"، لكان أفضل وأدق في التعبير. لماذا؟

لأن الخلَّة خاصَّة، والخلَّة أعلى درجات المحبَّة، وقد قال الله تعالى في إبراهيم: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وقال -عليه الصَّلَاة والسلام-: «فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى، قَدْ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»^{١٠} كما جاء في صحيح مسلم عنه -عليه الصَّلَاة والسلام-.

ولهذا فالأفضل هو التعبير بعبارة "وخليل رب العالمين"؛ لأنَّ فيها ميزة وخصوصية للنَّبي -عليه الصَّلَاة والسلام- أمَّا المحبَّة فهي عامَّة للأنبياء والرُّسل، وكذلك للصالحين، ولهذا قال النَّبي صلى الله عليه وسلم في علي رضي الله عنه: «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلٌ يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَوْ قَالَ يُحِبُّ اللَّهَ»^{١١} كما جاء في الصحيحين.

قال: (وَهُوَ الْمُبْعُوثُ إِلَى عَامَّةِ الْجِنِّ وَكَافَّةِ الْوَرَى) وهذه من خصائصه -عليه الصَّلَاة والسلام-.

✓ أنه مبعوث إلى عامَّة الجن، قد بُعث -عليه الصَّلَاة والسلام- للإنس والجن، كما دلَّ على ذلك القرآن

الكريم في مواضع كثيرة، منها قوله -تبارك وتعالى- في سورة الجن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ

الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١-

٢]، والجن لا يكون منهم رسل، وإنما يكون منهم منذرين، والدليل على ذلك قوله -تبارك وتعالى- في

^{١٠} صحيح مسلم (٨٣٢).

^{١١} صحيح البخاري (٤٢٠٩)، صحيح مسلم (٢٤٠٧).

سورة الأحقاف: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

✓ كذلك هو مرسل لكافة الورى، أي للناس عمومًا، وليس خاصًا بالعرب، كما قال الله -تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال -عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩]، وغيرها من الآيات التي تدل على أنه -عليه الصَّلَاة والسلام- مُرسل إلى كافة الورى، أي: للناس عمومًا، ومرسل للإنس والجن، وهذا العموم من خصائصه التي خصَّ بها -عليه الصَّلَاة والسلام-.

✓ وقد خُصَّ -عليه الصَّلَاة والسلام- بخصائص أخرى منها ختم النبوة، ومنها أنه بعث للناس كافة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة.

◀ فالإيمان به -عليه الصَّلَاة والسلام- يتضمن الإيمان بهذه الأمور،

(١) تؤمن بأنه عبدٌ حقَّق أعلى مقامات العبودية في أعلى مقاماته ، فلا يُعبد من دون الله، وهو نبي مجتبي، نبأه الله واجتباها، نبأه بـ "اقرأ" ورسوله المرتضى، أرسله بسورة "المدثر" للجن وكافة الورى.

(٢) كذلك تؤمن بالخصائص التي خصَّ بها -عليه الصَّلَاة والسلام- من كونه إمام الأتقياء، وخاتم الأنبياء، وسيد المرسلين، وخليل رب العالمين.

(٣) كذلك ما يتعلق بالإيمان بما جاء به -عليه الصَّلَاة والسلام- من النور والهدى، وكذلك بالحق والهدى والنور والضياء، وصف الوحي الذي جاء به، ووصف القرآن، وصف الشرع الذي جاء به -عليه الصَّلَاة والسلام-.

(٤) الشَّهادة له -عليه الصَّلَاة والسلام- فهذه الشَّهادة تتضمن أمورًا جاءت في الكتاب والسُّنة، كالإيمان بخصائصه صلى الله عليه وسلم، وحقوقه، وصفاته، وكذلك في الالتزام بهديه وشرعه.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

الدرس التاسع

- الأدلة من كتاب الله التي تدلُّ على أنَّ القرآن كلام الله كثيرة، منها:
- ✓ قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، فهو كلام الله -عزَّ وجلَّ.
- ✓ وأيضاً قول الله -تبارك وتعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٥].
- ✓ وأيضاً قول الله -تبارك وتعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥].
- فهو كلام الله -عزَّ وجلَّ- لفظه ومعناه، فلا يُقال: إنَّه كلام الله من جهة اللفظ فقط لا من جهة الحروف؛ بل تكلم الله -عزَّ وجلَّ- به حقيقة، فليس هو كلام الله لفظاً دون الحروف، ولا الحروف دون اللفظ.
- المعطلة ضلُّوا في هذا الباب، فمنهم من أثبت أنَّ القرآن هو كلام الله، ولكن جعله مخلوق كسائر المخلوقات، وهؤلاء هم المعتزلة، فهم وإن اعترفوا بأنَّه كلام الله إلا أنَّهم جعلوا الإضافة هنا من باب إضافة مخلوقٍ إلى خالقه، والسبب الذي جعلهم يعتقدون أنَّ القرآن مخلوق هو فرع عن ضلالهم في باب الصِّفات، حيثُ إنَّهم نفوا الصِّفات للرَّبِّ -تبارك وتعالى- ومن هذه الصِّفات: صفة الكلام؛ فلمَّا جاء القرآن أثبتوا أنَّه كلام الله ولكن ليس صفة من صفاته، فجعلوه مخلوقاً كسائر المخلوقات، وجعلوا الإضافة هنا من باب إضافة المخلوق إلى خالقه.
- وأهل السُّنَّة والجماعة يقولون: إنَّ الإضافة هنا إضافة صفةٍ إلى موصوفٍ.
- كيف تُفرَّق بين الإضافتين؟
- ✓ يقال: إنَّ المُضاف إن كان عَيْنًا قائمة بذاتها كما تقول: "بيت الله، ناقة الله"؛ فتكون هنا الإضافة إضافة مخلوق إلى خالقه، وتكون إضافة تشريف.
- ✓ وأمَّا إن كان المُضاف ليس عَيْنًا قائمة بذاتها كصفة الكلام؛ فتكون الإضافة هنا من باب إضافة صفةٍ إلى موصوفٍ. هذه هي القاعدة في هذا الباب.
- إذن أهل السُّنَّة والجماعة يعتقدون أنَّ القرآن كلام الله، وصفة من صفاته، وكذلك يُقال في جميع الكتب المنزلة إنَّها من كلام الله -عزَّ وجلَّ-.
- قال: (بَدَأَ بِأَلَا كَيْفِيَّةٍ)، هل هذا القول نفْيٌ للكيفيَّة أو نفْيٌ لعلمنا بالكيفيَّة؟ وهكذا إذا قال أهل العلم إذا قالوا في الصِّفات: نُثبتها بلا كيفٍ؛ هل المقصود هو نفْيُ الكيفِ أو المقصود هو نفْيُ علمنا بالكيفيَّة؟
- الجواب: المقصود هو نفْيُ علمنا بالكيفيَّة؛ فهو له كيفيَّة ولكن هذه الكيفيَّة لا نعلمها، فنحن نؤمن بهذه الصِّفات -ومنها القرآن- بلا كيفٍ، أي: لا ندرك كيف ذلك؛ لأنَّ الله -عزَّ وجلَّ- ليس كمثله شيء.

➤ قال الإمام الطحاوي: (وَأَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَحِيًّا)، أنزله الله -تبارك وتعالى- على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وحيًّا يُوحى، والأدلة على هذا كثيرة، كما قال -عز وجل-: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥]، والإنزال نوعان:

❖ **إنزال مطلق:** وهذا يكون من الله، وقد يُذكر من الله، وقد لا يُذكر، فإذا نزل فهو من الله -تبارك وتعالى- وهذا فيه إثبات العلو.

❖ **إنزال مقيد:** وهذا يُقَيِّده الله -عز وجل- بشيء، كما ذكر الله -عز وجل- في المطر: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [ق: ٩]، فهذا إنزال مُقَيَّد، وغالبًا يكون من مخلوق إلى مخلوق، كالسَّمَاء والمطر.

➤ أمَّا إنزال القرآن -وهو إنزال مطلق- فهو من الله -تبارك وتعالى- ولهذا قال: (وَأَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَحِيًّا)، فهو وحي من الله -تبارك وتعالى- ولهذا القرآن يُضاف إلى الله، ويضاف إلى جبريل، ويضاف إلى محمد. ✓

✓ وأمَّا إضافته إلى جبريل، أو إضافته إلى محمد -عليه الصَّلَاة والسَّلَام- فلأن جبريل هو الذي نزل به على محمد -عليه الصَّلَاة والسَّلَام- فمحمد -عليه الصَّلَاة والسَّلَام- مُبَلِّغ ورسول، والكلام يُنسب لمن تكلم به ابتداءً، لا إلى مَنْ بَلَّغَه، فلهذا إضافته إلى جبريل أو إضافته إلى محمد صلى الله عليه وسلم هي إضافة مُهِمَّة تبليغ، فهذا لا يُغَيِّر القرآن.

➤ وفي قوله: (وَوحِيًّا)، هذا ردُّ على المعتزلة الذين يجعلون القرآن مخلوقًا كسائر المخلوقات.

➤ **القرآن في اللوح المحفوظ، لكن هل جبريل أخذه من اللوح المحفوظ؟ أو من الله تعالى؟** أخذه من الله.

والصَّواب كما تجد أحيانًا في بعض أسانيد القراء من يكتب في إسناده وإجازته للقرآن الكريم، فيذكر إسناده عن شيوخه، إلى أن يقول: عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن جبريل، عن رب العالمين.

➤ **قال المصنف -رحمه الله: (وَصَدَّقَهُ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى ذَلِكَ حَقًّا) صدَّقوا مَنْ؟**

صدَّقوا الرسول -صلى الله عليه وسلم- في ما جاء به من عند ربه -عز وجل-.

➤ فأهل السُّنَّة والجماعة، وفقهاء الملة يعتقدون أنَّ القرآن كلام الله -تبارك وتعالى- حقيقة ليس بمخلوق، والأدلة على أنَّ القرآن ليس بمخلوق كثيرة، منها:

✓ قوله -عز وجل-: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، والقرآن هل هو من الخلق أو من الأمر؟ من

الأمر، بدليل قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، فالدليل مرَّكَّب من

دليلين: قوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾.

✓ أمَّا الأدلة من السُّنَّة: فبأن جواز الاستعاذة بكلمات الله، «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ

التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَجِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ»^{١٢}، والقرآن من كلمات الله، فلو

^{١٢} أخرجه مسلم عن خولة بنت حكيم

كانت كلمات الله مخلوقة فما جازت الاستعاذة بمخلوق، فدلَّ على أنَّ القرآن صفة من صفات الله، فهو كلام الله، ولهذا ليس بمخلوق.

هل للإنسان أن يُقسم بالقرآن؟

نعم يُقسم، فيقول: أقسم بآيات الله، ويقصد آيات الله القرآنية. لماذا؟ لأنه صفة من صفاته، فهو يقول: أعوذ بكلمات الله. ومنها القرآن.

أمَّا المصحف فهو ورق، ولهذا لا يجوز الحلف على المصحف؛ لأنَّ المصحف الذي هو عبارة عن الورق، والنَّاس يُفَرِّقُونَ بين الورق وبين المداد -أي: المكتوب- كما أنَّهم يُفَرِّقُونَ بين صوت القارئ وبين المتلو، فأنت تستمع إلى القراء وتميِّز بين أصواتهم أو لا؟ تميِّز بين الأصوات، ولكن المتلو والمقروء هو كلام الله.

وهل يختلف المقروء والمتلو؟

لا يختلف، أمَّا أصوات القراء فهي تختلف، فكون هذا القارئ قرأ بتلاوة معيَّنة، والقارئ الآخر قرأ بتلاوة أخرى، فهذا لا يُخرج هذا القرآن عن كونه كلام الله -عزَّ وجلَّ.

وهكذا إذا بلغه جبريل أو بلغه محمد صلى الله عليه وسلم؛ فهذا لا يُخرجه عن كونه كلام الله -تبارك وتعالى، فأنت إذا رويت حديثًا، فهل يُقال: إنَّ هذا الحديث الذي رواه هو كلامك؟ لو أنَّك قرأت حديث: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»^{١٣} هذا حديث قاله النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم، فكونك بلغته ونشرته، فأنت مجرد مبلغ، فيُنسب الكلام لمن تكلم به ابتداءً لا إلى من بلغه.

ووجه كون القرآن لا يشبه كلام البشر: أنَّ الله تحدَّى به المشركين، تحدَّاهم أن يأتوا بمثله فما استطاعوا، تحدَّاهم أن يأتوا بعشر سور فما استطاعوا، تحدَّاهم أن يأتوا بسورة فما استطاعوا، ولهذا لاحظ أنَّ من كبار العرب وأهل اللغة من يشهد للقرآن بهذا.

فاشتماله على ألفاظ العرب جميعًا يدلُّ على أنَّه ليس من كلام البشر، ثم أفاضله التي بلغت الغاية في الفصاحة والبيان، أيضًا لا يمكن لأحد أن يأتي بمثل معانيه، ثم أيضًا تأثيره على النَّفوس حتى النَّفوس الكافرة.

أيضًا ممَّا يدلُّ على أنَّه ليس بكلام البشر: ذكره لأُمُور الغيب التي لا تدركها عقول البشر، وذكره القصص والأخبار الماضية، وكذلك القصص الأخبار التي ستأتي، فهذا يدلُّ على أنَّ هذا القرآن ليس بكلام البشر، ولهذا تجد أطباء الغرب، وعلماء الغرب، وعلماء الأجنَّة، وعلماء الفلك؛ إذا قرءوا القرآن وعرفوا ما فيه من الآيات المبهرات، عرفوا أنَّ هذا ليس بكلام البشر، ولهذا هو معجزة نبينا صلى الله عليه وسلم.

وصلَّى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

^{١٣} البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب

الدرس العاشر

➤ **(وَالرُّؤْيَا حَقٌّ)** أي: يعتقد أهل السُّنَّة والجماعة وفقهاء الملة أنَّ رؤية المؤمنين لربهم في الجنة حقٌّ لا شك ولا مرية فيه.

➤ قال: **(بِغَيْرِ إِحَاطَةٍ وَلَا كَيْفِيَّةٍ)** أي: أنَّ المؤمنين يرون ربهم -تبارك وتعالى- في الجنة من غير أن يحيطون به، كما قال -عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] وكذلك هذه الرؤية لا يلزم منها الكيفية، كما قال -عزَّ وجلَّ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١١٣].

➤ وقوله: **(وَلَا كَيْفِيَّةٍ)** هل المقصود نفي الكيفية أو المقصود نفي علمنا بالكيفية؟ أيُّهما المراد؟ وهذا يقال في أبواب الصِّفات عمومًا، هل مُراد أهل السُّنَّة في كتب العقائد إذا قالوا: بغير كيف، يقصدون نفي الكيفية مطلقًا أم يريدون نفي علمنا بالكيفية؟ نفي علمنا بالكيفية.

بمعنى أنَّ الصِّفات لها كيفية، ولكن نحن لا نعلم هذه الكيفية، ولهذا قال الإمام مالك في معنى الاستواء: "الاستواء معلوم -من جهة المعنى- والكيف مجهول" يعني بالنسبة لنا، وإلا فله كيفية ولكن لا نعلمها، ولهذا قال لك: **(بِغَيْرِ إِحَاطَةٍ)**، ويشهد له قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

➤ من أدلة كتاب الله التي فيها إثبات الرؤية:

❖ **الآية الأولى:** هذه الآية التي ذكرها المصنف -رحمه الله- في سورة القيامة قوله -تبارك وتعالى: ﴿وُجُوهٌ

يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ ووجه الدلالة في الآية ظاهر ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ ناضرة من النضرة، وما سبب هذه النضرة، وهذا الحسن والبهاء الذي حصل لهذه الوجوه؟

رؤيتهم لربهم -تبارك وتعالى- وهذا يُبين لك أنَّ نعيم الجنة منه نعيمٌ حسيٌّ ومنه نعيمٌ معنويٌّ، فالنعيم الحسيُّ هو تلذُّذهم بالأكل والشرب وأنواع الملذَّات المحسوسة، والنعيم المعنويُّ هو رؤيتهم لربهم -تبارك وتعالى- وهو أعظم نعيمٍ يتنعم به أهل الجنة، ولهذا لاحظوا هنا قول ربنا -تبارك وتعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ من النضرة ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ فهنا نَسَبَ النَّظَرَ إِلَى الوجوه، فدلَّ على أنَّه نظرٌ حقيقيٌّ إلى الرَّبِّ -تبارك وتعالى-.

وَالنَّظَرُ إِذَا عُدِّيَ بـ "إِلَى" فَإِنَّهُ يُفِيدُ النَّظَرَ وَلَا يُفِيدُ الْعِلْمَ، ولا الاعتبار للمعاني التي أوَّلَ بها المعطلة هذه الآية، بل الآية صريحة في إثبات رؤية المؤمنين لربهم -تبارك وتعالى- ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

❖ **الآية الثانية:** قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] والحسنى هي: الجنة. والزيادة

هي: رؤيتهم لربهم -تبارك وتعالى- كما فسرنا بذلك النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم في حديث صهيب عند

مسلم^{١٤}، وهذا من تفسير النَّبِيِّ -عليه الصَّلَاة والسلام- للقرآن، ففسَّر الزَّيَادَةُ هنا برؤية المؤمنين لربهم -تبارك وتعالى- وأنَّ هذا أعظمُ نعيمٍ يتنعمُ به أهلُ الجنَّة.

❖ **الآية الثالثة:** قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥] وقد فسَّر الصحابة -رضوان

الله تعالى عليهم- المَزِيدَ برؤيتهم لربهم -تبارك وتعالى- فهم لهم ما يشاؤون فيها من أنواع النعيم، ثم قال: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]، يعني زيادة على هذا النعيم وهو رؤيتهم لربهم -تبارك وتعالى.

❖ **الآية الرابعة:** قوله تعالى في وصف أهل الجنَّة -جعلنا الله وإياكم منهم وإخواننا المشاهدين- قال: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٣] أي: ينظرون إلى ربهم -تبارك وتعالى.

❖ **الآية الخامسة:** وقد استدللَّ بها الإمام الشَّافعيُّ -رحمه الله- وهي قوله تعالى عن الكفار: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ

عَن رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَّحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] ووجه الاستدلال: مفهوم المخالفة، فإذا كان الكفار عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون، فدلَّ ذلك على أنَّ المؤمنين يرون ربهم -تبارك وتعالى.

➤ من أسباب ضلال الذين ضلوا في باب الأسماء والصفات، إمَّا التأويل أو الهوى، (لَا نَدْخُلُ فِي ذَلِكَ) وهذه قاعدة في كل باب الأسماء والصفات (لَا نَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مُتَأَوِّلِينَ بِأَرَائِنَا وَلَا مُتَوَهِّمِينَ بِأَهْوَانِنَا) والتأويل له معانٍ صحيحة وله معانٍ باطلة.

✓ **قد يأتي التأويل بمعنى التفسير،** كما يقول ابن جرير: "تأويل هذه الآية" حيث يقصد بالتأويل التفسير.

✓ **وقد يأتي التأويل بمعنى الحقيقة** التي يؤول إليها الشيء، كما تقول: تأويل الرؤية، وعلى هذا فسرت الآية في سورة "آل عمران" وهي قوله -عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧].

➤ **ما الدليل الذي حمّله على أن يصرف المحيي من محيي الرب إلى محيي الملك؟**

يقول لك قرينة عقلية، وهذا تفسير باطل، وصرف للفظ عن معناه الظاهر إلى معنى آخر بغير دليل. يقول لك القرينة وهي نفي التشبيه، نقول: إنَّ الله -تبارك وتعالى- أثبت لنفسه المحيي، فنثبت له مَا أثبتته لنفسه على الوجه اللائق به.

➤ **ما تعريف الإسلام؟**

الإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله، فالإسلام هو على هذا المعنى، ولهذا فإنه فإنه مَا سَلِمَ في دينه إلا من سَلِمَ لله، فَصَدَّقَ الخبر، وامتلأ الأمر، واجتنب النهي.

➤ **لوأنه اعترض الخبر فلم يُصدق، هل يكون قد سَلِمَ لله؟**

أبدًا؛ لأنَّه اعترض ونفى الصفات وأنكر الغيبات، فهذا مَا سَلِمَ في دينه، وَلَمْ يُسَلِّمْ لله -عزَّ وجلَّ- فيما أخبر به.

ولهذا المؤمن يؤمن بكل مَا أخبر الله -تبارك وتعالى- به في كتابه، سواء أدرك عقله ذلك أم لم يدرك، والعقول قاصرة، لا تدرك كل شيء، فما دام أن الله -تبارك وتعالى- أخبر عن نفسه، والنبي -عليه الصلاة والسلام-

^{١٤} مسلم (٢٦٦) عَنْ صُهَيْبٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وَجُوهَنَا، أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيُكْشَفُ الْحِجَابُ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ.

أخبر عن ربه، فإننا نؤمن بذلك ونصدق ذلك (فَإِنَّهُ مَا سَلِمَ فِي دِينِهِ إِلَّا مَنْ سَلَّمَ لِلَّهِ) -تبارك وتعالى- فَصَدَّقَ الخبر وامثل الأمر.

❧ لو أنه لم يمثل للأوامر إلا إذا ما عرف الحكمة منها، فهل يكون حينئذٍ مستسلم لله؟

أبداً، ولهذا لاحظ أن اليهود فيهم عادة الاعتراض، لما أمرهم الله -عزَّ وجلَّ- بذبح البقرة، أخذوا يعترضون، ولهذا جاء في الأثر "لا تكونوا كاليهود، يقولون: لماذا أمر ربنا؟ ولكن قولوا: ماذا أمر ربنا؟" ولهذا كان السلف يزجرون مَنْ يسأل عن الأسباب، جاء في الصحيحين، أن معاذة العدوية إحدى التابعيات قالت لعائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها: ما بال المرأة الحائض، تؤمر بقضاء الصوم ولا تؤمر بقضاء الصلاة؟ قالت لها عائشة: "أحرورية أنت؟" قالت: لا، إنما أن سائله، قالت: "كنا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم تؤمر بقضاء الصوم ولا تؤمر بقضاء الصلاة"^{١٥}.

● انظر هذا الجواب السديد المبني على التسليم، فالمؤمن يسلم لله، فيصدق ما أخبر الله به، أدرك عقله أم لم يدرك، والعقول قاصرة لا تدرك كل شيء، أما من أقحم عقله فلا يصدق من الأخبار إلا ما أدركه عقله، في الواقع لا يسلم له دينه، ولا يمثل من الأوامر إلا ما يقتنع به، هذا ليس مستسلم لله، ولا يجتنب من النواهي إلا ما يقتنع من المفسدة فيه، فهذا لم يستسلم لله، فالمؤمن يسلم لله، فيصدق الخبر ويعلم أن ما أخبر الله به فهو حق وصدق، أدرك ذلك عقله أو لم يدركه، ويمثل الأمر ويعتقد أن الله -عزَّ وجلَّ- ما أمر بشيء إلا وهو خير ومصلحة، إما مصلحة محضة خالصة أو مصلحة راجحة، والعقول قد تدرك هذه المصالح وقد لا تدركها، ويعلم يقيناً أن الله ما نهى عن شيء إلا وهو مفسدة، إما مفسدة محضة أو مفسدة راجحة، والعقول قد تدرك ذلك وقد لا تدرك، لكن المؤمن يصدق الخبر ويمثل الأمر ويجتنب النهي.

ولهذا جاء في البخاري عن الزهري، أنه قال: "من الله البيان، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم" فنصدق الخبر ونمثل الأمر ونجتنب النهي، ولهذا المصنف -رحمه الله- قال هذه القاعدة العظيمة في باب العقائد وفي باب العبادات وفي باب الأمور وفي باب النهي وفي باب الخبر، فهي من القواعد العظيمة في الدين.

❧ (فَإِنَّهُ مَا سَلِمَ فِي دِينِهِ إِلَّا مَنْ سَلَّمَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَرَدَّ عِلْمَ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ إِلَى عَالِمِهِ) يعني ما اشتبه عليه في باب الأخبار أو باب الأوامر أو باب النواهي؛ فَإِنَّهُ يَرُدُّ عِلْمَهُ إِلَى عَالِمِهِ والاشتباه أنواع:

❖ **اشتباه مطلق:** وهو ما يتعلّق بالأمور الكيفية، فهذا أمره إلى الله، ولهذا السلف يُثَبِّتُونَ المعاني، وما يتعلّق بالكيفيات يردُّون علمها إلى الله -كما مرَّ معنا- بلا إحاطة ولا كيفية، فالكيف أمره إلى الله، فلا يُكَيِّفُونَ الصِّفَاتِ ولا سائر الأمور الغيبيات.

❖ **اشتباه نسبي:** وهو أنه قد يشتبه الأمر لدى بعض النَّاسِ لقصور علمه أو لقصور فهمه، فكيف يزول هذا الاشتباه؟ قال: (وَرَدَّ عِلْمَ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ إِلَى عَالِمِهِ) يزول الاشتباه بالبحث والسؤال، فقد يُشَكِّلُ على المسلم أمرٌ في دينه، في خبر من الأخبار أو ما يوهِم التَّعارض عنده، فهذا الاشتباه يزول بالبحث

^{١٥} رواه البخاري ١٢٢/ ١ (٣١٥)، ومسلم ٢٦٥/ ١ (٣٣٥)، وهذا لفظه.

والسُّؤال، ولهذا قوله -تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧] التَّشَابُه هنا أمرٌ نسبيٌّ، قد يتشابه عند فلان ولا يتشابه عند فلان، ولهذا إذا سأل وبحث زال هذا الاشتباه.

➤ قال: (وَرَدَّ عِلْمٌ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ إِلَى عَالِمِهِ) فالأمور الغيبية كيف فيها مجهول لا يعلمه إلا الله، وأما ما عداه من التَّشَابُه النَّسْبِيِّ فإنه يزول بالبحث والسُّؤال لأهل العلم.

➤ قال: (وَلَا تَثْبُتُ قَدَمُ الْإِسْلَامِ إِلَّا عَلَى ظَهْرِ التَّسْلِيمِ وَالِاسْتِسْلَامِ) لا يكون مسلمًا حقًا حتى يستسلم لله -تبارك وتعالى- كما مرَّ معنا في تعريف الإسلام.

➤ (وَلَا تَثْبُتُ قَدَمُ الْإِسْلَامِ) لا يكون مسلمًا حقًا ومستقيمًا على دينه حتى يظهر عليه الاستسلام والانقياد، أمَّا إن كان شاكًّا في الأخبار، فيعترض، ويردّها، ويحرّفها، ويؤوّلها؛ هل تثبت له قَدَمُ الْإِسْلَامِ؟ أبدًا، يتذبذب. لماذا؟ لأنَّ عنده شكٌّ، وهذا الذي أوقع هؤلاء المتكلمون في الحيرة لما وقعوا تذبذبوا، لأنَّ الأخبار عندهم يعرضونها للعقول، فيقبلون ويردُّون ويؤوّلون.

• (وَلَا تَثْبُتُ قَدَمُ الْإِسْلَامِ إِلَّا عَلَى ظَهْرِ التَّسْلِيمِ وَالِاسْتِسْلَامِ) والتسليم والاستسلام معنيان متقاربان، تسليم للأخبار واستسلام وانقياد للأوامر والنَّواهي، كما قال -تبارك وتعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

لو وَرَدَتْ على المسلم وساوس تسبب له الشُّكَّ، فيدفعها بالاستعاذة بالله -تبارك وتعالى- وقد ذكرنا هذه المسألة في الدروس الأولى في شرح العقيدة الطحاوية، في من وردت عليه مثل هذه الوسوس والشكوك، فيُذهبها بالاستعاذة والاعتصام بالله -تبارك وتعالى.

➤ قال: (فَمَنْ رَامَ عِلْمَ مَا حُظِرَ عَنْهُ عِلْمُهُ) يعني: قَصَدَ وَأَرَادَ البحث فيما حُظِرَ عنه عِلْمُهُ وهو الغيبيات والكيفيات، يبحث في الكيف، والكيف مجهول. (فَمَنْ رَامَ) يعني: طلب البحث فيما حُظِرَ عنه علمه، وهي أمور الغيب وأمور الكيفيات.

➤ (وَلَمْ يَقْنَعْ بِالتَّسْلِيمِ فَهَمُّهُ) ما استسلم بل اعترض على الخبر، حجبته مرامه عن خالص التوحيد، هذا البحث وهذا التكلف سيحجبه عن ماذا؟

➤ عن خالص التوحيد الذي هو كماله، فيوقعه في الشُّكَّ، ولهذا اعتبر بمن خاض في هذا الباب، فأوقعه هذا البحث والتكلف إلى إنكار الصفات، أو تحريف الصفات، أو تفويض معاني الصفات، وكذلك في جميع أبواب الدين.

➤ فمن خاض في هذه الأمور الغيبية، فحجبه مرامه عن خالص التوحيد، لم يكن موحدًا خالصًا.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

الدرس الحادي عشر

قال: (وَلِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، شهادة أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ. ما معناها؟

المسلم إذا قال أو سمع المؤذن وهو يقول كل يوم: "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنَّ محمدًا رسول الله"، ما معنى شهادة أنَّ محمدًا رسول الله؟

طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يُعبد الله إلا بما شرع، فلا يَستقيمُ الدين إلا بالتَّسليم للرسول -عليه الصَّلَاة والسَّلَام.

قال: (وَرَدَّ عِلْمَ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ إِلَى عَالِمِهِ) الاشتباه: إمَّا اشتباه مطلق وإمَّا اشتباه مقيّد.

(١) **الاشتباه المطلق:** هو ما يتعلّق بالكيفيّات، وهذه أمرها إلى الله، فلا يخوض في الكيف، ولهذا فإنَّ السَّلف يُفَوِّضون الكيف، فيقولون: الكيفُ مجهولٌ، نعم هذه الصِّفَات لها كُنْهٌ ولها كَيْفِيَّةٌ، ولكن لا نعلم هذه الكيفيّة، فهم يُفَوِّضون الكيفيات، ولكن يعرفون المعاني، يعرفون معنى الاستواء ومعنى النزول ومعنى المجيء ومعنى السَّمْع ومعنى البصر، ولكن الكيف مجهول، وأمره إلى الله، فهذا هو الاشتباه المطلق.

(٢) **الاشتباه النَّسبي:** هو أنَّ بعض المسائل قد تُشكّل وقد تشبه على المسلم وعلى طالب العلم؛ فيتوقّف ولا يخوض فيها بغير علم حتى يتبيّن له موضع الاشتباه، ويعود إلى كلام أهل العلم في المسائل التي أشككت عليه فيزول هذا الاشتباه، كما لو أشكّل على مسلم اسم من الأسماء، هل هو ثابت لله أو غير ثابت؛ فلا يخوض بغير علم، أو قد تشكّل عليه صفة من الصِّفَات، فلا يخوض فيها بغير علم، بل يردُّ ما اشتبه عليه إلى عالمه.

مُراده هنا بقوله: (إِلَى عَالِمِهِ) إمَّا رده إلى الله، وهذا فيما يتعلّق بالكيفيّات، أو يردُّه لأهل العلم إذا كان ممَّا يَعْلَمه أهل العلم، ولهذا التَّأْوِيل في قوله -تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ [آل عمران: ٧] التَّأْوِيل هنا يحتمل معنيين:

❖ **المعنى الأول:** الحقيقة، وهذه لا يعلمها إلا الله.

❖ **المعنى الثاني:** التفسير ومعناه، وهذا يعلمه أهل العلم.

وهكذا الاشتباه يحتمل أن يكون:

✓ اشتباهًا مطلقًا، فهذا يكلِّ علمه إلى الله.

✓ أو اشتباهًا نسبيًا فيما يُشكّل من المعاني، نعم لها معاني ولكنّها قد تُشكّل على بعض طلاب العلم، وتُشكّل على بعض المسلمين، فإنّه لا يخوض فيها بغير علم، وإنّما يردُّ ما اشتبه عليه إلى عالمه.

إذن التَّسليم لله يكون في الخبر والأمر والنهي والقدر، وهكذا التَّسليم للرسول -عليه الصَّلَاة والسَّلَام- فيما أخبر به عن ربّه -تبارك وتعالى- وما اشتبه فيردُّ علمه إلى عالمه، فإن كان من الكيفيّات؛ فلا يعلم ذلك إلا الله،

وإن كان من المسائل التي تُشكّل والنُصوص التي قد يظهر من ظاهرها التّعارض؛ فإنّه لا يخوض فيها بغير علم، وإنّما يتنبّه ويرجع إلى أهل العلم.

قال: (وَلَا تُثَبِّتُ قَدَمُ الْإِسْلَامِ إِلَّا عَلَى ظَهْرِ التَّسْلِيمِ وَالْإِسْتِسْلَامِ) نعم لا يكون مسلمًا إلا على ظُهر التَّسْلِيمِ والانقياد لله -تبارك وتعالى- تصديقًا لخبره فلا يعترض، وتصديقًا لأمره، وانقيادًا لقضائه وقدره، ولهذا كان الإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله.

لو أنّه لم يستسلم واعترض على أخبار الله، فهل يكون منقادًا لله؟ هل يكون مسلمًا ويعترض على خبر الله؟ أو يعترض على أمر الله؟ أو يعترض على نهي الله؟ أو يعترض على أقدار الله؟

هذا لا يكون مسلمًا حقًا وهو يعترض على أخبار الله -تبارك وتعالى- كما قال الله -تبارك وتعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

كُلُّ مُحَرِّفٍ مُعْطِلٍ، وليس كُلُّ مُعْطِلٍ مُحَرِّفٍ، لكن التَّعْطِيلُ والتَّحْرِيفُ كلاهما نفي، نفيٌ لاستواء حقيقي يليق بالربِّ -عز وجل- معناه علا وارتفع وصعد واستقر، ونفي لمجيء حقيقي يليق بالربِّ -تبارك وتعالى-، ونفي لنزول حقيقي يليق بالربِّ -تبارك وتعالى- وهكذا في سائر الصِّفَات، فَمَنْ نَفَى معاني هذه الصِّفَات، فقد عَطَّلَ الربَّ -تبارك وتعالى-.

الناس في باب الأسماء والصِّفَات طرفان ووسط:

□ الْمُعْطِلَةُ وهم النُّفَاة.

□ والمَشْبِيهِ المجسمة وهم الغلاة في الإثبات.

□ وأهل الحقِّ والصَّواب، يثبتون إثباتًا من غير تمثيلٍ ويُزهِون تنزيهًا من غير تعطيلٍ، وهو هنا يقصد طرفي النقيض.

النُّفَاة ما شهتْهم في النَّفْيِ؟ لماذا نفوا هذه الصفات؟

لأنهم بزعمهم ينزّهون الخالق عن مماثلة المخلوقين.

هل هذا تنزيه أم تعطيل؟ ما فعلوه حينما نفوا الصفات هل حقيقته التَّنْزِيهِ أم التَّعْطِيلُ؟ حقيقته أنه تعطيل.

أنت إذا قلت: "سبحان الله، سبحان ربي العظيم، سبحان ربي الأعلى" فالمعنى أَنَّكَ تنزّه الله -تبارك وتعالى- عن ثلاثة أشياء:

(١) تُنْزِّهُهُ عن مشابهة المخلوقين.

(٢) تُنْزِّهُهُ عن كُلِّ صِفَةٍ نقصٍ وعيبٍ.

(٣) تُنْزِّهُهُ عن النَّقْصِ في صفات الكمال.

وتفيد العلو بمعانيه الثلاثة: علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر -سبحانه وتعالى- وتنزّهه وتقدّس.

وصلّى الله على نبيّنا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

الدرس الثاني عشر

- من الفوائد والحكم التي تُستنبط من قصة الإسراء والمعراج، في ذلك إثبات العلو لله -تبارك وتعالى، ما وجه إثبات العلو لله -تبارك وتعالى؟
- المقصود العلو الذاتي الذي يُنكره المُعطلّة، فيثبتون علو القدر وعلو القهر ولكنهم يُنكرون علو الذات.
- من الآيات والعبر إثبات صفة الكلام لله -تبارك وتعالى؛ لأنّ الله -تبارك وتعالى- كلّم نبيه محمد -صلى الله عليه وسلم، ففيه إثبات صفة الكلام، وأنّ الله -تبارك وتعالى- يتكلّم متى شاء، كيفما شاء، فإذا شاء بحرف وصوت مسموع، سَمِعَهُ مِنْهُ مُوسَى، وَسَمِعَهُ مُحَمَّدٌ -صلى الله عليه وسلم.
- من الآيات والعبر والفوائد ما يدل على فضيلة نبينا -عليه الصّلاة والسّلام، حيث إنّ الله -عز وجل- بَيَّنَّ شَرَفَهُ وَمَكَانَتَهُ حيث أمّ بالأنبياء والمرسلين في بَيْتِ الْمَقْدَسِ،
- في ليلة المعراج بيان فضيلة النّبي -عليه الصّلاة والسّلام؛ لأنّه قَبْلَ عُرُوجِهِ، لما أُسْرِيَ به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى صَلَّى بالأنبياء إمامًا، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ -عليه الصّلاة والسّلام- فَمَا مَرَّ عَلَى أَهْلِ سَمَاءٍ إِلَّا رَحَبُوا بِهِ وَأَقْرَبُوا بِنَبَوْتِهِ -عليه الصّلاة والسّلام.
- كما فيه من الفضائل في قصة الإسراء والمعراج مشاركته -عليه الصّلاة والسّلام- لموسى -عليه السّلام- في صفة التكليم.
- من الفوائد شَفَقَةُ مُوسَى وَرَحْمَتُهُ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ، حيث أَمَرَ نَبِيْنَا مُحَمَّدًا -صلى الله عليه وسلم- التخفيف لأُمَّتِهِ في الصّلاة.
- فيها العبر من الآيات والعبر من عظم مخلوقات الله -تبارك وتعالى- وسعتهَا، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْخَالِقَ الْعَظِيمَ عَظِيمٌ، وفيهَا أَيْضًا مِنْ الْفَوَائِدِ مُعْجَزَةُ الرَّسُولِ -عليه الصّلاة والسّلام، فَإِنَّ الْإِسْرَاءَ وَالْمَعْرَاجَ آيَةٌ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى صَدَقِ الرَّسُولِ -عليه الصّلاة والسّلام.
- من الفوائد استشارة أهل الفضل والصّلاح، حيث إنّ النّبي -عليه الصّلاة والسّلام- أشار عليه موسى واستشار جبرائيل، فالإنسان مَهْمَا بَلَغَ فِي مَقَامَاتِ الْفَضْلِ، فَهُوَ بِحَاجَةٍ إِلَى الْمَشُورَةِ وَاسْتِشَارَةِ أَهْلِ الْفَضْلِ وَالصّلاح والتّقى.
- من الفوائد بيان فضل بيت المقدس، أعاده الله للمسلمين وطَهَّرَهُ مِنْ أَرْجَاسِ الْيَهُودِ، حيث إنّ النّبي -عليه الصّلاة والسّلام- عُرِجَ بِهِ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدَسِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، فِي أَعْلَى مَكَانٍ وَصَلَ إِلَيْهِ بَشَرٌ، وَهَنَاكَ سَمِعَ -عليه الصّلاة والسّلام- صَرِيْفَ الْأَقْلَامِ.
- من الفوائد بيان مكانة الصّلاة وفضل الصّلاة، حيث إنّ الله -تبارك وتعالى- فرضها على نبيه -عليه الصّلاة والسّلام- أي: من الله مباشرة من غير واسطة.

النَّبِيِّ -عليه الصَّلَاة والسلام- يُجمع له بين الصَّلَاة والسلام، كما قال الله -تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، (فَصَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَى) أي: في الآخرة والدنيا.

هل الحوض خاصٌّ بالنبي -عليه الصَّلَاة والسلام؟ أم أنَّ لكل نبي حوض؟

قد جاء في بعض الأحاديث ومن الأحاديث ما رواه الترمذي، أنَّ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا»^{١٦} ويتباهى الأنبياء بأحواضهم، والنَّبِيُّ -عليه الصَّلَاة والسلام- يمتاز حوضه بأنه أعظم أحواض الأنبياء وأحلاها وأكثرها واردةً، فلكل نبي حوض فيتباهون ويتفاخرون، وأكثر الأنبياء ورودًا على الحوض، أي: أكثر مَنْ يَرِد من الناس هم على حوض النَّبِيِّ -عليه الصَّلَاة والسلام-، فيمتاز حوضه -عليه الصَّلَاة والسلام- بأكثرها ورودًا وأحلاها.

الشَّفَاعَةُ ذَلَّ عَلِمُهَا الْقُرْآنُ ودلت عليها السُّنَّةُ، وَمِنْ أدلة القرآن على الشَّفَاعَةِ، قوله -تبارك وتعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] والمقام المحمود هو شفاعته -عليه الصَّلَاة والسلام- في أهل الموقف، وهي الشَّفَاعَةُ الْعُظْمَى في أهل الموقف، للفصل والقضاء.

هذه الشَّفَاعَةُ التي يعتذر عنها الأنبياء، يعتذر عنها آدم، ويعتذر عنها نوح وهو أول الرسل، ويعتذر عنها إبراهيم وهو خليل الرحمن، ويعتذر عنها موسى وهو كلِّم الرحمن، ويعتذر عنها عيسى، ثم يأتون محمدًا -صلى الله عليه وسلم- فيقول: «أَنَا لَهَا أَنَا لَهَا»^{١٧} فيشفع في أهل الموقف.

الإخلاص والتَّوْحِيدُ وقول لا إله إلا الله بإخلاص مِنْ أسباب نيل شفاعَةِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ» فهو لاء هم أسعد الناس بشفاعة النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم-.

الشَّفَاعَةُ التي جاءت في القرآن جاءت مُثَبَّتَةً وجاءت مَنفِيَّةٌ، فالشَّفَاعَةُ المَنفِيَّةُ هي التي تُسأل مِنْ غَيْرِ اللَّهِ، أو بغير إِذْنِهِ أو بغير رضاه، وأمَّا الشَّفَاعَةُ المُثَبَّتَةُ فهي التي تُسأل بإِذْنِهِ، وبرضاه عن الشَّافِعِ وعن المشفوع فيه، فالشَّفَاعَةُ الْعُظْمَى التي هي في أهل الموقف والتي هي المقام المحمود، لَا يَتَقَدَّمُ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- بطلبها وإنما يؤذن له ابتداءً، وهكذا الشَّفَاعَاتُ يُؤْذَنُ لِلشَّافِعِ أَنْ يَشْفَعَ، ففيها إظهار كرامة الشَّافِعِ وفيها مَنفَعَةٌ في المشفوع فيه.

الشَّفَاعَاتُ فِي الْآخِرَةِ أنواع: هناك شَفَاعَاتُ خَاصَّةٌ بِالنَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- ومنها:

✓ شفاعته في أهل الموقف التي هي المقام المحمود.

✓ وشفاعته في دخول أهل الجنة الجنة، هذه خاصة بالنبي -صلى الله عليه وسلم-.

✓ وهناك شفاعَة خاصة به وهي شفاعته -عليه الصَّلَاة والسلام- بعمه أبي طالب، ليخفف عنه العذاب فقط.

^{١٦} السلسلة الصحيحة عن سمرة بن جندب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا، وإنهم يتباهون أيهم أكثرُ وَارِدَةً، وإنني أرجو الله أن أكون أكثرهم واردةً.

^{١٧} السلسلة الصحيحة (٢٨١٧)

✓ وبقية الشفاعات في أقوام استحقوا النار من أهل التوحيد أن لا يدخلوا النار، وفي أقوام دخلوا النار أن يخرجوا من النار، وفي أقوام دخلوا الجنة في رفع درجات في الجنة، فهذه تكون للنبي -صلى الله عليه وسلم- وتكون لغيره من النبيين والملائكة والشهداء والصالحين. والقرآن يشفع والصيام يشفع، والشهداء يشفعون، ولهذا يأتي القرآن شفيعاً لأصحابه يوم القيامة، إلا أن هناك صنف من المؤمنين لا تقبل شفاعتهم.

من هم الذين لا تقبل شفاعتهم؟

اللاعنون كما جاء في حديث صحيح من حديث أم الدرداء عن أبي الدرداء، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «لَا يَكُونُ اللَّعَانُونَ شُهَدَاءَ وَلَا شَفَعَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^{١٨} أعادنا الله وإياكم من هذا الوصف، فكثير اللعن يوم القيامة لا تقبل شفاعته ولا شهادته.

الأسباب التي بها ينال العبد الشفاعة، ومنها:

- (١) إخلاص التوحيد لله -تبارك وتعالى.
- (٢) المحافظة على الأدعية بعد الأذان.
- (٣) كثرة الصلاة على النبي -عليه الصلاة والسلام.
- (٤) قد جاء في سكن المدينة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- وعد من صبر على لأوائها وشدتها، إلا كان له شفيعاً يوم القيامة.

قال صلى الله عليه وسلم: «وَلَا يَنْبُتُ أَحَدٌ عَلَى لَأْوَائِهَا وَجَهْدِهَا إِلَّا كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا أَوْ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^{١٩}.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

^{١٨} مسلم من حديث أبي الدرداء

^{١٩} مسلم (١٣٦٣) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنِّي أَحَرَّمُ مَا بَيْنَ لَابَتَيْ الْمَدِينَةِ، أَنْ يُقَطَعَ عِصَاهُهَا، أَوْ يُقْتَلَ صَبْدُهَا، وَقَالَ: الْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، لَا يَدْعُهَا أَحَدٌ رَغْبَةً عَنْهَا إِلَّا أَبْذَلَ اللَّهُ فِيهَا مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ، وَلَا يَنْبُتُ أَحَدٌ عَلَى لَأْوَائِهَا وَجَهْدِهَا إِلَّا كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا أَوْ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)